الكاتب اليساري

المجلة المهجرية الوحيدة المتخصصة

يسارية – أكاديمية – فكرية – ثقافية - نقدية

العدد رقم 66 :: آذار – مارس 2022

تعنى بابداع الكاتب وحرية النص

Issue No. 66 :: March 2022

د. وليم نصار

درس مجاني في الارهاب

انفصام ثقافي وسلاح دمار شامل وانتحار

التطبيع وتبيئة إسرائيل

مستوطن

حليمة الفنلندية

النسخ في الوحي

في المسرح . . . العمل التجريبي ومدى نجاحه

الأغاني في مجال أغبال

والأسطورة قوة مهيمنة ومرعبة

حكاية الثعلب والسلحفاة

عاهرة باب أول

القناص الأحول

Al Kateb ISSN 1286 - 1425

كونوا شركاء في المحاولة

□ الكاتب مشروع ثقافي أكاديمي لبناني وعربي أسسه مجموعة من المثقفين والمبدعين اللبنانيين والعرب المقيمين في أوروبا، أمريكا الشمالية، والولايات المتحدة الأمريكية.

كانت تصدر الكاتب تحت إسم عيبال، ومن ثم البديل، إلى أن استقر الرأي على اعتماد إسم الكاتب عنوانا للمجلة.

تقصد مجلة الكاتب إلى إثارة السؤال الثقافي العربي في الواقع الراهن، محاولة منها برفده بصوت الجدل الحيوي، المفضي إلى السوية الثقافية، والمحفز إلى مزيد من التلاحم بين الثقافي – الفكري، بل وحتى السياسي في زمن أصبحت التحديات الثقافية أقرب إلى الزلزلة منها إلى الأخذ بالتي هي أحسن، ذلك أن أحوال الثقافات والمثقفين قد تبدلت وأصبحت رهن سيادة الطوائف والأحزاب، وأصبح المثقف أو أشباهه، والجاهل المتثاقف في زمن الفايسبوك يشترى ويباع في أسواق نخاسة الأنظمة والأجهزة والسفارات والغرف السوداء.

إنساننا اللبناني والعربي في الأوطان الأم، وفي المهاجر والمنافي، يجب أن ينهض، وثقافتنا ينبغي أن تتطور وتتوطد، ولابد أن نواجه الراهن ونستعجل أوان نضجه الطالع بالظفر. فكل إبداع هو كوة حرية، وكل فعل هو انعتاق، وكل تلاحم فكر إنساني هو زمن آت.

تمر حيوات، بيد أن حياة ممتلئة هي تلك التي تكتنز الابداع وتثمر الحرية، ولمجلة الكاتب فيها سويعة، لو عانقت أقلامكم واحتضانكم لها، ولا وقت يمر دون بشاراته.

يعمل فريق مجلة الكاتب وأصدقاؤها بشكل تطوعي من أجل:

- توثيق الثقافة والفن الانساني اللبناني والعربي، القديم والموروث، وتقديمه إلى المجتمعات الغير عربية بالوسائل الاكاديمية، عبر محاضرات ثقافية، وترجمة دراسات عن الثقافة والفن والتاريخ اللبناني والعربي، ومن خلال تنظيم معارض فنية وأمسيات موسيقية مع موسيقيين أكاديميين غربيين.
- يشجع ويتبنى فريق الكاتب أعمال الكتاب والشعراء والمبدعين اللبنانيين والعرب، أو المتحدرون من أصول عربية، ويتم نشر إبداعاتهم في مجلة الكاتب التي تصدر بعدة لغات، كما يتم التعريف بتلك الأعمال والابداعات للجمهور العربي والغربي سواء في الأوطان الأم أو المهاجر.
- يؤمن فريق مجلة الكاتب بحرية الفكر والتعبير، ويعتبرهما ركيزة أساسية لبناء المجتمع الديمقراطي اللبناني والعربي، الغير طائفي، والذي يسوده العدل والمساواة والقانون.
- يعمل فريق الكاتب مع المثقفين والمبدعين التقدميين الاوروبيين والعرب في التبشير بضرورة السلام في الشرق بالتوازي مع مقاومة التطبيع السياسي والاقتصادي مع دولة إسرائيل، ليس لأننا لا نؤمن بضرورة حل النزاع في الشرق، بل لأنه لا يمكن أن يكون هنالك سلام في ظل الاستمرار بسياسة الاعتقالات الجماعية، ومصادرة الأراضي، والاعتداءات العسكرية التي لا تنتهي من قبل إسرائيل على وطننا لبنان والدول العربية المجاورة.
- يغطي فريق الكاتب إصدار النسخة الورقية المطبوعة، وكذلك تكاليف الموقع الالكتروني عبر نشر بعض الاعلانات في كل عدد لمرسسات ثقافية وإنسانية وتربوية. إنما التكلفة الحقيقية هي في الجهد المبذول من قبل الفريق لاصدراها، وتبرعات الكتاب والمبدعين بانتاجهم الفكري.
- يعمل فريق المجلة دون مقابل وبشكل تطوعي.
- بانتظار أقلامكم ودعمكم الابداعي□□

فريق الكاتب

تصدر عن عيبال للثقافة البديلة
Published by: Ebal For Alternative Culture
غير تجارية – Non Profit

The Writer
A Cultural Review in
Arabic & Other Languages

الكاتب
أكاديمية - نقدية - ثقافية - سياسية - فكرية
مجلة يسارية تصدر بعدة لغات

Editor – In – Chief
Composer and Political Singer
Dr. William Nassar

صاحبها ورئيس التحرير
المؤلف الموسيقي والمغني السياسي
د. وليم نصار

سكرتير التحرير
د. فيوليت دمياطي

مستشارا التحرير
عز الدين المصري
لينا حوا

مدراء التحرير
جوزفين فرنجية
مارون سلوم
يزن الأحمد
Anna White

فريق الكاتب
حسن زيدان
سلاف العلي
كمال أبو عبسي
أنطوان الراسي
جريس سلامة
حمزة مرتضى
علي الحسن
Richard Bordeaux
Chantal Temin

استشارة قانونية
Legal Advisor
Katarina Theodorakis
كاتارينا ثيودوراكيس

إعلانات
كارولين قحطاني
Vera Bellianti

مدراء الصفحة الالكترونية
نيرودا خوري
Patrick Laroc
Mary Quick

النسخة الالكترونية
https://al-kateb.com
E-Mail: alkateb@journalist.com
https://facebook.com/majallatalkateb

رقم التسجيل الدولي
ISSN 2563 - 3007

كلمة العدد

4
د. وليم نصار
درس مجاني في فن الارهاب

ضيوف الكلمة

5
فريق الكاتب
الموسيقيّ وديع صبرا

المقال

8
الفضل شلق
انفصام ثقافي وسلاح دمار شامل وانتحار
12
ارام محاميد
التطبيع وتبييئة إسرائيل
17
عبد الرزاق دحنون
كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم
18
د. مصعب عزاوي
هل هي نهاية الكتاب المطبوع؟
20
د. حسيب شحادة
حليمة الفنلندية
23
سامي البدري
أنا أكره قاطع التاكر
24
سيد القمني
النسخ في الوحي
33
سامي عبد الحميد
في المسرح.. العمل التجريبي ومدى نجاحه

كلمة أخيرة

38
ماجد ع. محمد
مستوطن

تغريدة

39
نوال شق
بحث

النقد

14
نجاة تميم
تأثير مفهوم الجذمور والتفكير البدوي
31
عذري مازغ
الأغاني في مجال أغبال
34
د. سامح عسكر
كارثة وضع الحديث في الفكر الإسلامي هل تتكرر؟
36
عزيز باكوش
والأسطورة قوة مهيمنة ومرعبة

القصة

7
ماجد الحيدر
حكاية الثعلب والسلحفاة
10
ماري القصّيفي
عاهرة باب أول

القصيدة

16
منصور الريكان
القناص الأحول
32
مظفر النواب
زنزانته وما هم ... لكنه العشق

واحات

9
الطيب طهوري
عن العقلية العربية
13
امين يونس
عصافير مشوية
20
ال يسار الطائي
الحظيرة هي المكان الانسب
22
فوز حمزة
ساخن جداً جداً
37
د. طالب الجليلي
سعدون جابر .. جحود مزمن للأسف

الغلاف: للتشكيلي اللبناني شوقي دلال
Cover: Painting by Chawki, Dalal, Lebanon
تصميم وإخراج: زينب ريحان – يولاند صادق، Guy Reynolds
طبع من هذا العدد 1500 نسخة ورقية وزعت مجانا على المراكز الثقافية والجامعات والمكتبات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية، أمريكا الشمالية، أوروبا، أستراليا واليابان

❑ أصبح عرفا سائدا أن كل ما تقوم به الولايات المتحدة الامريكية في هذا الكون يعتمد على شعار أوحد ألا وهو "مكافحة الإرهاب".

واليوم ... تتحفنا الولايات المتحدة الأمريكية، وتتماهى معها الدول الاوروبية جمعاء بالاضافة إلى دول الخليج قاطبة، مع دخول على الخط من مرتزقة ليبيا وتونس بالاضافة إلى اليسار المرتزق في لبنان، تتحفنا هذه الادارة باعتمادها أسلوبا جديدا وعصريا في حروبها باعتماد شعار "الديمقراطية للشعوب".

للوهلة الأولى، تبدو الشعارات الأمريكية والأوروبية في غاية الجمال وإنسانية الأبعاد وبالتالي تقود، وبشكل تلقائي، لشعار اجمل عنوانه العريض "التسامح والعدل في العلاقات الدولية والإنسانية". إلا أن الحقيقة، وكما بات يعرفها الجميع باستثناء من استبدلوا قبلتهم بالبيت الأبيض، أن ما تقصده الولايات المتحدة الأمريكية من رفع هذا الشعار مختلف تماما، وبعيد كل البعد عن معانيه الإنسانية. فالولايات المتحدة الأمريكية هي البلد الأول الذي مارس، ولا يزال يمارس، القمع والإرهاب بكافة أشكاله وأنواعه، واللائحة طويلة.

د. وليم نصار
رئيس التحرير

حرب على الإرهاب

فلنبدأ من تصفية السكان الأصليين في أمريكا الشمالية "الهنود الحمر، تجارة العبيد، التمييز العنصري ضد المواطنين السود، قمع وإرهاب أمريكا اللاتينية بكل دولها، الحرب التي شنتها على فيتنام وحروب الهند الصينية، إغتيال سلفادور الليندي رئيس تشيلي المنتخب ديمقراطيا، حصار كوبا، تدمير العراق وارتكاب أبشع المجازر بحق العراقيين، الدعم المطلق لحكّام إسرائيل، ودعمها المباشر لهم في اغتيال لبنان، كل لبنان، بشرا وحجرا.وتدمير ليبيا واعادتها إلى العصور الحجرية، ومؤخرا ... الحرب المعلنة على سورية تحت راية نشر الديمقراطية والحرية للشعب السوري... وأخيرا .. فرض التهويد على فلسطين.

إن معنى الإرهاب في القاموس الأمريكي القبيح واضح ولا تشوبه شائبة، ولا يحتاج إلى خبراء لترجمته وشرحه، ويمكن تلخيصه بالتالي:
- إنه أي كلمة أو أغنية أو قصيدة تكتب ضد هذه السياسة القبيحة.
- إنه أي عمل يرفض الرضوخ والركوع لهذه السياسات اللا إنسانية. وهذا يعني أن الدفاع أو التأييد لأي قضية عادلة هو نوع من أنواع الإرهاب.
- أي محاولة للدفاع عن الورد في بلادنا هي عمل إرهابي.
- أي محاولة للدفاع والذود عن تاريخنا وحضارتنا وثقافتنا هي عمل إرهابي.
- أي محاولة لرفض ثقافة الماكدونالدز والكوكا كولا، وثقافة تشريع الإغتصاب هي عمل إرهابي.
- أي محاولة للدفاع عن خبزنا اليومي هي إرهاب ما بعده إرهاب.
- وأخيرا، وليس آخرا، فان أي نداء للسلام والتضامن والإخاء الإنساني، وأي نداء للحرية من أجل حياة أفضل بلا جوع أو مرض أو خوف أو استعمار، هو الإرهاب بعينه.

وما يجعل الصورة أبشع وأكثر سوادا، أن التعريف الأمريكي للإرهاب والديكتاتورية ونشر القيم الديمقراطية الامريكية أصبح متبنّى عالميا. والأقبح تبنّيه من بعض الـ "علمانيين ويساريين وشيوعيين وقوميين" عرب، عدا عن تجنيد كتاب ومفكرين وفنانين لتنفيذه تحت شعارات ظاهرها إنساني وباطنها لا يعلم به غير قنصليات السفارات الأوروبية والأمريكية.

لقد أصبح مصطلح الإرهابي يطلق على أي مجموعة سياسية أو اجتماعية، أو حتى نشطاء أفراد يعارضون هذا الشعار الأمريكي القبيح.

واليوم، يطل علينا الجائع الروسي بوتين، الخائن لوطنه السوفيتي وحزبه، لينضم إلى نادي الدول الامبريالية فيشن حرباً على أوكرانيا مستعطفاً جمهوراً عريضاً من الشيوعيين حول العالم باستخدام شعارات تُطربهم مثل النازيون الجدد، الرئيس الاوكراني يهودي- صهيوني إلخ... ليبرر اعتداءه على أوكرانيا، وتدميرها بشراً وحجراً، ليصل به الاجرام إلى التلميح باستخدام السلاح النووي.

بعد كل ما تقدم، فإن النضال لإسقاط وإفشال السياسات الرأسمالية، الأمريكية والاوروبية والروسية والصينية، لا يجب أن يكون عملا تضامنيا فقط. إنه واجب أخلاقي يقع على عاتق كل إنسان محب للسلام والعدل والحياة الكريمة... يجب أن يكون النضال ضد سياسات الامبرياليتين الغربية والشرقية ومحاولة سيطرتهما على مقدرات الكون واجبا إنسانيا عالميا.

من أجل كل هذا، يتوجب على القوى السياسية في أوروبا، أمريكا اللاتينية، أمريكا الشمالية، روسيا وآسيا، وبالطبع في الدول العربية، إن بقيت، التوحد ومقاومة هذا الإرهاب الأطلسي والروسي على قدم المساواة.

ومن هذا المنطلق، فإن النضال لاسقاط هواة الحروب ووأد السياسات الفاشية لحلف الناتو والحكومة الروسية في مهدها، هو الوسيلة الوحيدة لـتأمين مستقبل أفضل لأطفالنا القادمين، ومن أجل كرة أرضية تتسع لكل البشر❑❑

الموسيقيّ وديع صبرا

الموسيقيّ وديع صبرا، ضيف الكلمة في هذا العدد، يصطحب معه عددًا من الضيوف: ميشال زكّور النائب (عهد الانتداب الفرنسيّ) وهو الصحافيّ صاحب جريدة المعرض اللبنانيّة، والأديبة سلمى صايغ التي كتبت مقالة عن وديع صبرا في الجريدة المشار إليها، والأب يوسف طنّوس الذي كتب نبذة عن حياة صبرا وأعماله على موقع One Fine Art.

و"الكاتب اليساريّ" إذ تستضيف هذا الموسيقيّ فلكي تذكّر، والعالم في خضمّ مواجهة الأوبئة والحروب، بأنّ الخلاص لن يكون إلّا في الفنّ الأصيل، وبأنّ الفنون على أنواعها يجب أن تتلاقى على قيم الخير والحقّ والجمال، لعلّ البشريّة تعرف السلام المنشود.

***

صحيفة المعرض (أيلول – كانون الأوّل 1921)

النبوغ اللبنانيّ
وديع صبرا نابغة الموسيقى الشرقيّة
(مقدّمة المقال بقلم ميشال زكّور)

فريق المجلة
لبنان

❑ أرسلت إلينا الكاتبة الرقيقة السيّدة سلمى صايغ مقالًا طيّبًا عن الأستاذ وديع أفندي صبرا، نابغة فنّ الموسيقى في الشرق - بمناسبة نجاحه الجديد في اختراع البيانو العربيّ - وقد شاءت أن تصدّر مقالها بالكتاب اللطيف الذي يلي:

حضرة الأديب

طلبت إليّ يوم رأيتك لآخر مرّة أن أكتب شيئًا لجريدتك (المصونة) عن اختراع الأستاذ وديع صبرا. والآن - وقد حاربت كسلي وعقدت النيّة على تلبية طلبك – أتقدّم إليك أن تعذرني على إخلالي بذلك الوعد القديم يوم عزمت على إصدار (المعرض) وطلبت إليّ أن أستقبله (بما يليق بشأنه).

أمّا وقد اعتذرت فأقول لك إنّ الفضل في هذا المقال الذي ستقرأه يرجع إلى اقتراحك نفسه، لأنّك لو لم تطلب إليّ أن أكتب عن الصديق الكبير الذي أعتبر إذاعة فضله واجبًا محتّمًا، لما كنت تأخذ اليوم سطرًا. لا أريد أن تفهم من كلماتي هذه إنّي ضنينة أو فخورة بما أكتب، لا وألف لا. ولكنّني كاتبة قُضي عليها أن لا تكتب. وطالما تمنّيت أن يكون لي حظّكم - أيّها الكتّاب – فأصرف الساعات الطوال وأتلاعب بعواطف الناس فأضحكهم وأسلّيهم وأدهشهم طويلًا.

قضي عليّ أن لا أكتب لأنّ عملي في قلم المطبوعات يأخذ كلّ ساعات نهاري. وإذا اعترضتني وقلت: - وقبل المكتب؟ وبعد المكتب؟ - إذا قلت هذا أضطر أن أجيبك إنّني كسولة إلى درجة لا تصدّق. يقولون إنّي نشيطة أمّا أنا فأشعر بالرغم من كلّ هذا النشاط الظاهر في العمل، بوجود كمّية كبرى من الكسل الشرقيّ في دمي. فأحبّ شيء إليّ بعد انقضاء النّهار هو الجلوس على الرمال والتفكّر بأجدادي الأقدمين الذين وجدوا الفلسفة الحقيقيّة فعاشوا في هذا الشرق ساكنين، مطمئنّين، هادئين، نائمين تحت ظلال النخيل.

والآن أخاف من الاندفاع في الكلام عن كسلي وسكوني فأباشر في كتابة ما اقترحتَ عليّ وأختم كتابي إليك بالسلام عليك.

شيء عن وديع صبرا
بقلم سلمى الصايغ

لا أظنّ أنّه يوجد بين قرّاء هذه السطور من سكّان بيروت من يجهل الأستاذ وديع صبرا، فقد عرفته هذه المدينة موسيقيًّا بارعًا وعاملًا نشيطًا في عالم الفنّ. على انّ له مزية اخرى لا يعرفها الناس وهي العمل في بناية هذا الوطن من قبل أن يصير وطنًا.

لهذا أقول بفخر إنّ وديع صبرا هو من الرجال الذين يعملون منذ سنين في سبيل عمل لم يقدم عليه سواه لا من الغربيّين ولا من الشرقيّين. وهذا سيفتح صفحة جديدة في حياة الموسيقى الشرقيّة. من المعلوم أنّ الموسيقى العربيّة الحاليّة مأخوذة عن الموسيقى البيزنطيّة، وأنّ الموسيقى الشرقيّة كلّها غير مقيّدة بالعلامات التي تتميّز بها بالموسيقى العربيّة، ولم يقدم أحد إلى اليوم على ربط الموسيقى الشرقيّة بالعلامات المعروفة بـ(النوت) – بطريقة أصوليّة – لأنّ هذه العلامات وضعت للأنغام الغربيّة. وهذه الأنغام هي نفسها ناقصة نسبة إلى الموسيقى الشرقيّة التي هي أقرب إلى الأصوات الطبيعيّة.

إنّ أقرب الآلات إلى الأصوات الطبيعيّة هي الآلات النافخة كالقصب والناي والفلوت وسواها، ويتلو هذه ذوات الأوتار كالكمنجة والعود والقيثارة (Guitare). أمّا البيانو، فمع أنّها (آلة) ناقصة – من جهة الأصوات – بالنسبة إلى ذوات الأوتار فهي آلة أكثر ضبطًا من جميع الآلات لأنّ من يضرب عليها لا يحتاج إلى ما يسمونه (الدوزان).

على أنّ البيانو لا تؤدّي الألحان الشرقيّة كاملة، لأنّ الأصوات في الموسيقى الغربيّة تقسم إلى أنصاف. أمّا الأصوات الشرقيّة فتقسم إلى أرباع وأثمان. لهذا لا يمكن لأيّ موسيقيّ مهما كان بارعًا أن يعزف على البيانو نغمَ "غيري على السلوان قادر" أو أيّ نغم سواه ويأتي به كاملًا كما يأتي به العَوّاد.

المعرض
العدد الثاني
أيلول – كانون الأول ١٩٢١
١٠

النبوغ اللبناني
وديع صبرا نابغة الموسيقى الشرقية

ارسلت الينا الكاتبة الرقيقة السيدة سلمى صايغ مقالا طيبا عن الاستاذ وديع صبرا، فقد عرفته هذه المدينة موسيقيا بارعا وعاملا نشيطا في عالم الفن. على انه له مزية اخرى لا يعرفها الناس وهي العمل في بناية الوطن من قبل ان يصير وطنا. لهذا اقول بفخر ان وديع صبرا هو من الرجال الذين يعملون منذ سنين في سبيل عمل لم يقدم عليه سواه لا من الغربيين ولا من الشرقيين. وهذا سيفتح صفحة جديدة في حياة الموسيقى الشرقية. من المعلوم ان الموسيقى العربية الحالية مأخوذة عن الموسيقى البيزنطية، وان الموسيقى الشرقية كلها غير مقيدة بالعلامات التي تتميز بها الموسيقى العربية ولم يقدم احد الى اليوم على ربط الموسيقى الشرقية بالعلامات المعروفة بـ(النوت) – بطريقة اصولية – لان هذه العلامات وضعت للانغام الغربية : وهذه الانغام هي نفسها ناقصة نسبة الى الموسيقى الشرقية التي هي اقرب الى الاصوات الطبيعية.

ان اقرب الآلات الى الاصوات الطبيعية هي الآلات النافخة كالقصب والناي والفلوت وسواها ويتلو هذه ذوات الاوتار كالكمنجة والعود والقيثارة "Guitare". اما البيانو فمع انها ناقصة – من جهة الاصوات – بالنسبة الى ذوات الاوتار فهي آلة اكثر ضبطا من جميع الآلات لان من يضرب عليها لا يحتاج الى ما يسمونه (الدوزان).

على ان البيانو لا تؤدي الالحان الشرقية كاملة ذلك لان الاصوات في الموسيقى الغربية تقسم الى انصاف . اما الاصوات الشرقية فتقسم الى ارباع والى اثمان . لهذا لا يمكن لأي موسيقي مهما كان بارعا ان يعزف على البيانو نغم (غيري على السلوان قادر) او اي نغم سواه ويأتي به كاملا كما يأتي به العواد.

•••

وقد عطر في بال الاستاذ وديع – وذلك منذ ١٥ سنة – ان من الممكن ايجاد طريقة تقيد بها الموسيقى الشرقية بارباعها وأثمانها وتطبيقها عمليا على آلة مثل "البيانو" وما عرض فكره هذا في استانبول سنة ١٩٠٨ قال له احدهم (لو كان هذا العمل ممكنا لسبقك اليه الغربيون)

لقد وضعوا الشرق في بقلة الثبات، على ان وديع صبرا يخفي وراء سكوته ارادة تفلت الصخر والنقت . فهو منذ خمس عشرة سنة يعمل لايجاد الطريقة التي حلم بها عندما كان تلميذا في دار الموسيقى في باريس الى ان تكلل جهاده بالفوز وتوصل الى اكتشاف ما قضى الحياة بالتفتيش عنه.

اما سر نجاحه فهو الثبات اولا ثم (الانقطاع بالكلية الى العمل الذي وجد لأجله). وقد اشتهر بهذه الصفة حتى شاع عنه انه لا يعرف من امور الدنيا شيئا الا الاعمال . فلو تكلم احد امامه عن مسألة تجارية قال بكل بساطة (هذه مسألة يفهمها حبيبنا الشاب، التجاري) واذا سأله احد رأيه في السياسة اجاب مبتسما: (السياسة من اختصاصيات الكونسرفاتوار)

على انه يفهم من الامور اكثر من كثيرين غيره ولكن مبدأه في التخصيص ثابت لا يحول ولا يزول وكثيرا ما يقول الكتاب المستقلة المكتب؟ وبعد المكتب؟ اذا قلت هذا اضطر ان اجيبك انني كسولة الى درجة لا تصدق. يقولون انني نشيطة انا فأشعر بالرغم من هذا النشاط الظاهر في العمل، بوجود كمية كبرى من الكسل الشرقي في دمي. فاحب شيء الي بعد انقضاء النهار هو الجلوس على الرمال والتفكر بأجدادي الاقدمين الذين وجدوا الفلسفة الحقيقية فعاشوا في هذا الشرق ساكنين، مطمئنين، هادئين، نائمين تحت ظلال النخيل.

والآن أخاف من الاندفاع في الكلام عن كسلي وسكوني فأباشر في كتابة ما اقترحت علي وأختم كتابي اليك بالسلام عليك.

اما وقد اعتذرت فأقول لك ان الفضل في هذا المقال الذي ستقرأه يرجع الى اقتراحك نفسه لانك لو لم تطلب الي أن اكتب عن الصديق الكبير الذي اعتبر اذاعة فضله واجبا محتما، لما كنت تأخذ اليوم سطرا. لا اريد ان تفهم من كلماتي هذه اني ضنينة او فخورة بما اكتب، لا وألف لا. ولكنني كاتبة قضي علي ان لا اكتب. وطالما تمنيت ان يكون لي حظكم – ايها الكتاب – فأصرف الساعات الطويلة بكتابة المقالات الطوال وتلاعب بعواطف الناس فاضحكهم واسليهم وادهشهم طويلا!

قضي علي ان لا اكتب لان عملي في قلم المطبوعات يأخذ كل ساعات نهاري. واذا اعترضتني وقلت – وقبل المكتب؟ وبعد المكتب؟ – اذا قلت هذا اضطر ان اجيبك انني كسولة الى درجة لا تصدق. يقولون انني نشيطة انا فأشعر بالرغم من هذا النشاط الظاهر في العمل، بوجود كمية كبرى من الكسل الشرقي في دمي. فاحب شيء الي بعد انقضاء النهار هو الجلوس على الرمال والتفكر بأجدادي الاقدمين الذين وجدوا الفلسفة الحقيقية فعاشوا في هذا الشرق ساكنين، مطمئنين، هادئين، نائمين تحت ظلال النخيل.

والآن أخاف من الاندفاع في الكلام عن كسلي وسكوني فأباشر في كتابة ما اقترحت علي وأختم كتابي اليك بالسلام عليك.

الأستاذ الموسيقي وديع افندي صبرا.
أخذ رسمه وهو يوقع الالحان العربية بكل دقائقها على البيانو الجديد الذي اخترعه خصيصا للالحان العربية وقد نجح فيه نجاحا باهرا كما يطالع القارئ في المقال الافتتاحي.
واننا نهنئه ان نقدم الى كل شرقي وناطق للضاد نابغة لبنانيا في فن الموسيقى الجميل.

شيء عن وديع صبرا

لا اظن انه يوجد بين قرّاء هذا السطور من سكان بيروت من يجهل الأستاذ وديع صبرا، فقد عرفته هذه المدينة موسيقيا بارعا وعاملا نشيطا في عالم الفن. على انه له مزية اخرى لا يعرفها الناس وهي العمل في بناية الوطن من قبل ان يصير وطنا. لهذا اقول بفخر ان وديع صبرا هو من الرجال الذين يعملون منذ سنين في سبيل عمل لم يقدم عليه سواه لا من الغربيين ولا من الشرقيين. وهذا سيفتح صفحة جديدة في حياة الموسيقى الشرقية. من المعلوم ان الموسيقى العربية الحالية مأخوذة عن الموسيقى البيزنطية، وان الموسيقى الشرقية كلها غير مقيدة بالعلامات التي تتميز بها الموسيقى العربية ولم يقدم احد الى اليوم على ربط الموسيقى الشرقية بالعلامات المعروفة بـ(النوت) – بطريقة اصولية – لان هذه العلامات وضعت للانغام الغربية : وهذه الانغام هي نفسها ناقصة نسبة الى الموسيقى الشرقية التي هي اقرب الى الاصوات الطبيعية.

ان اقرب الآلات الى الاصوات الطبيعية هي الآلات النافخة كالقصب والناي والفلوت وسواها ويتلو هذه ذوات الاوتار كالكمنجة والعود والقيثارة "Guitare". اما البيانو فمع انها ناقصة – من جهة الاصوات – بالنسبة الى ذوات الاوتار فهي آلة اكثر ضبطا من جميع الآلات لان من يضرب عليها لا يحتاج الى ما يسمونه (الدوزان).

على ان البيانو لا تؤدي الالحان الشرقية كاملة ذلك لان الاصوات في الموسيقى الغربية تقسم الى انصاف . اما الاصوات الشرقية فتقسم الى ارباع والى اثمان . لهذا لا يمكن لأي موسيقي مهما كان بارعا ان يعزف على البيانو نغم (غيري على السلوان قادر) او اي نغم سواه ويأتي به كاملا كما يأتي به العواد.

•••

وقد عطر في بال الاستاذ وديع – وذلك منذ ١٥ سنة – ان من الممكن ايجاد طريقة تقيد بها الموسيقى الشرقية بارباعها وأثمانها وتطبيقها عمليا على آلة مثل "البيانو" وما عرض فكره هذا في استانبول سنة ١٩٠٨ قال له احدهم (لو كان هذا العمل ممكنا لسبقك اليه الغربيون)

لقد وضعوا الشرق في بقلة الثبات، على ان وديع صبرا يخفي وراء سكوته ارادة تفلت الصخر والنقت . فهو منذ خمس عشرة سنة يعمل لايجاد الطريقة التي حلم بها عندما كان تلميذا في دار الموسيقى في باريس الى ان تكلل جهاده بالفوز وتوصل الى اكتشاف ما قضى الحياة بالتفتيش عنه.

اما سر نجاحه فهو الثبات اولا ثم (الانقطاع بالكلية الى العمل الذي وجد لأجله). وقد اشتهر بهذه الصفة حتى شاع عنه انه لا يعرف من امور الدنيا شيئا الا الاعمال . فلو تكلم احد امامه عن مسألة تجارية قال بكل بساطة (هذه مسألة يفهمها حبيبنا الشاب، التجاري) واذا سأله احد رأيه في السياسة اجاب مبتسما: (السياسة من اختصاصيات الكونسرفاتوار)

على انه يفهم من الامور اكثر من كثيرين غيره ولكن مبدأه في التخصيص ثابت لا يحول ولا يزول وكثيرا ما يقول الكتاب المستقلة

في هذا الصدد.

اذكر انه ذهب مرة الى ادارة شركة لك (بطالبها بواجبها نحوه كرجل يدفع الاشتراك ولا يأخذ شيئا. وقال مسألة ذوقه عن نتيجة تلك المقابلة قال:

(استقلني فلان وكلمني عن الموسيقى وقال صرنا الى البحث عن الانغام الشرقية رأيت نفسي امام رجل متضلع في الفن فرحمت ولم اكلمه في مسألة المال. لاني قلت في نفسي ان الرجل الذي يعرف الموسيقى الى هذه الدرجة يجهل – ولا بد – كل ما هو متعلق بالمال. وشركات المال)

ان في هذه النكتة المضحكة مثالة كبيرة فلم تحسن كل منا للمهنة التي ارتضاها الخالق فيه لانقطع هذا التضحيح في لبنان وسوريا وسائر مكان العمل الهادئ المثمر.

لنرجع الى الآلة التي اخترعها الاستاذ وديع. لقد اشتغل الاستاذ نهارا وليلا، حتى عثر على ما يصبو اليه . وفي هذه الايام يتسنح من قلبه كل من تبع وديع في جهاده عاطفة جميلة هي الشعور معه بسمو يمكن له من الوصول الى غايته وقرب الاثير وتفعيل الى جواره انغاما رقيقة كأنغام العود تخترق الهواء بسهولة وتأتي الكواوة في وظيفتها.

الفوز بعد الجهاد. وهذه الانغام تخرج من طارقة خشبية سط عليها الموسيقي اختراعه الذي سيعرض بعد اسابيع قليلة على البيروتيين فيعرف امامهم الالحان الشرقية على البيانو العربي دون النقص فيه ثم يعرف الالحان نفسها على الآلة التي اخترعها بلى الفرق جليا واضحا.

وقد اهتم ارباب الفن في باريس لهذا الاختراع يوم سأل الاستا وديع في صيف ١٩١٩ الى باريس وعرض فكرته على ماهر من يلايل الذي كلفه ان يطلعه على كل ما يجد لديه ووعده بصنع البيا العربية حالما يتم اختراعها.

وليس صاحب معمل يلايل العربي الوحيد الذي يعرف قيمة ذ النابغة اللبناني، فقد سبق الاستاذ لاوتيناك الشهير وكتب عنه مقا جميلة هي عبارة عن نبوءة تمت اليوم . وفي الاسطر التالية نرى ه هذه الواسطة القديمة التي تدل على اقرار الغربي للشرقي بالنبوغ قال الاستاذ لاوتيناك:

عندما اتاني وديع صبرا سنة ١٨٩٤ لم يكن يعرف كلمة من الا الافرنسية او علامة من العلامات الموسيقية . واخق يقال ايضا كيف توصل الى فهم الدروس التي كنت القيها على صفي. عبارة نجاحه كان غريبا في بابه فقد كان يتعلم بسهولة نادرة وفهم في ا الموسيقى شيء غريبي فيه.

واليوم اصبح اصيلا في علم الابداع وقد رجعت ابرا عديدة غير مقدرة في التأليف. فهو موسيقي كامل الاوصاف وليس هذا كل يقال عنه فهو مختار بفضائل سامية واخلاق رضية وقد عرف ان يجع نفسه محبوبا من كل رفاقه ومن كل اساتذته. اما انا فاسر الاعتراف فيه – ما عدا التلميذ النابغ – الصديق الحقيقي والتي له كذلك.

وكتب الاستاذ نفسه في احدى المجلات الموسيقية ما يأتي:

ان ما يجب الفات النظر اليه هو مقدرته الفنية المضاعفة. فهو الموسيقي الوحيد الذي يعرف الفن الغربي والفن الشرقي في وقت واحد.

اما مواهبه الموسيقية فلم ارها في احد من ابناء الشرق. لقد ذه فرنسا فتى وتعلم فيها الموسيقى الغربية على انه لم يهمل موسيقى بلاده فهو يسافر من حين الى آخر الى وطنه ويدرس فيه الموسيقى الشرقية ولولا التوازن الذين في قواه العقلية لما نتج عن هذا الدرس الحثيث سوى الاضطراب والتعقيد. على ان وديع صبرا قدر ان يملك هذين القرنين في وقت واحد، فبينما هو يشتغل في تعميم الموسيقى الاوربية في بلاده نراه في باريس يشتغل بدون ملل بين ارباب الفن ليعلمهم الهام الموسيقى العربية ويكشف لهم مخبآتها.

ويلذ لي ان اصرح ان وديع صبرا هو استاذ دون مكانة سامية فهو يكاتب ويتكلم اللغتين من لغات الموسيقى مختلفتين عن بعضهما كل الاختلاف ويفهم جمال الالحان على حد سواء . وهذا حدث يجدر في تاريخ الفن.

•••

هذا ما يقوله عن وديع صبرا كثير من كبار الموسيقيين في الشرق ويلذ لي في هذه الفرصة ان انشر هذه السطور ليعلم الاهالي شوقي في الكواوة في وظيفتها.

وقد خطر في بال الأستاذ وديع – وذلك منذ 15 سنة – أن من الممكن إيجاد طريقة تقيّد بها الموسيقى الشرقيّة بأرباعها وأثمانها وتطبيقها عمليًّا على آلة مثل "البيانو"، ولمّا عرض فكره هذا في استنانبول سنة 1908 قال له أحدهم: "لو كان هذا العمل ممكنًا لسبقك إليه الغربيّون:.

لقد وصفوا الشرقيّ بقلّة الثبات، على أنّ وديع صبرا يخفي وراء سكوته إرادة تُفتت الصخر ولا تتفتت. فهو منذ خمس عشرة سنة يعمل لإيجاد الطريقة التي حلم بها عندما كان تلميذًا في دار الموسيقى في باريس، إلى أن تكلّل جهاده بالفوز وتوصّل إلى اكتشاف ما قضى الحياة بالتفتيش عنه.

أمّا سرّ نجاحه فهو الثبات أوّلًا ثمّ (الانقطاع إلى العمل الذي وجد لأجله). وقد اشتهر بهذه الصفة حتّى شاع عنه أنّه لا يعرف من أمور الدنيا شيئًا إلّا الأنغام. فلو تكلّم أحد أمامه عن مسألة تجاريّة قال بكلّ بساطة (هذه مسالة يفهمها جيّدًا التاجر الفلاني)، وإذا سأله أحد رأيه في السياسة أجاب مبتسمًا: (السياسة من اختصاصات الكوميساريا).

على أنّه يفهم من الأمور أكثر من كثيرين غيره، ولكن مبدأه في التخصيص ثابت لا يحول ولا يزول، وكثيرًا ما يقول النكات المستطرفة في هذا الصدد.

أذكر أنّه ذهب مرّة إلى إدارة شركة الماء ليطالبها بواجبها نحوه كرجل يدفع الاشتراك ولا يأخذ شيئًا. ولمّا سأله ذووه عن نتيجة تلك المقابلة قال:

(استقبلني فلان وكلّمني عن الموسيقى ولمّا صرنا إلى البحث عن الأنغام الشرقيّة رأيت نفسي أمام رجل متضلّع في الفن، فرجعت ولم أكلّمه في مسألة الماء، لأنّني قلت في نفسي إنّ الرجل الذي يعرف الموسيقى إلى هذه الدرجة يجهل – ولا بدّ – كلّ ما هو متعلّق بالماء وشركات الماء).

إنّ في هذه النكتة المضحكة مثالة كبيرة فلو تخصّص كلّ منّا للموهبة التي أوجدها الخالق فيه لانقطع هذا الضجيج في لبنان وسوريا وساد مكانه العمل الهادئ المثمر...

لنرجع إلى الآلة التي اخترعها الأستاذ وديع. لقد الأستاذ نهارًا وليلًا حتّى عثر على ما يصبو إليه. وفي هذه الأيّام يسمع من يسكن في جواره أنغامًا رقيقة كأنغام العود، تخترق الأثير وتحمل إلى قلب من تتبّع (وديع) في جهاده عاطفة جميلة هي الشعور معه بسموّ الفوز بعد الجهاد. وهذه الأنغام تخرج من طاولة خشبيّة بسط عليها الموسيقيّ اختراعه الذي سيعرضه بعد أسابيع قليلة على البيروتيّين، فيعزف أمامهم الألحان الشرقية على البيانو المعروف، فيرون النقص فيه، ثمّ يعزف الألحان نفسها على الآلة التي اخترعها، فيظهر الفرق جليًّا واضحًا.

وقد اهتمّ أرباب الفنّ في باريس لهذه الاختراع يوم سافر وديع في صيف 1919 إلى باريس، وعرض فكرته على صاحب معمل بلايل Pleyel الذي كلّفه أن يطلعه على كلّ ما يجدّ لديه ووعده بصنع البيانو العربيّة حالما يتمّ اختراعها.

وليس صاحب معمل بلايل بالغربيّ الوحيد الذي يعرف قيمة هذا النابغة اللبنانيّ، فقد سبق الأستاذ لافينياك الشهير وكتب عنه سطورًا جميلة هي عبارة عن نبوءة تمّت اليوم. وفي الأسطر التالية شيء من هذه المراسلة القديمة التي تدلّ على إقرار الغربيّ للشرقيّ بالنبوغ.

قال الأستاذ لافينياك:

عندما أتاني وديع صبرا سنة 1894 لم يكن يعرف كلمة من اللغة الإفرنسيّة أو علامة من العلامات الموسيقيّة. والحقّ يقال إنّني لا أعلم كيف توصّل إلى فهم الدروس التي كنت ألقيها على صفّي. على أنّ نجاحه كان غريبًا في بابه، فقد كان يتعلّم بسهولة نادرة، وظهر لي أنّ الموسيقى شيء غريزيّ فيه. واليوم أصبح أصيلًا في علم الإيقاع، وقد برهن مرارًا عديدة على مقدرة في التأليف. فهو موسيقيّ كامل الأوصاف، وليس هذا كلّ ما يقال عنه، فهو ممتاز بفضائل سامية وبأخلاق رضيّة، وقد عرف أن يجعل نفسه محبوبًا من كلّ رفاقه ومن كلّ أساتذته. أمّا أنا فأسرّ لأنّني أرى فيه – ما عدا التلميذ البارع – الصديق الحقيقيّ وإنّني له كذلك.

وكتب الأستاذ نفسه في إحدى المجلّات الموسيقيّة ما يأتي:

أمّا مواهبه الموسيقيّة فلم أرها في أحد من أبناء الشرق. لقد قدِم فرنسا فتى وتعلّم فيها الموسيقى الغربيّة على أنّه لم يهمل موسيقى بلاده، فهو يسافر من حين إلى آخر إلى وطنه، ويدرس فيه الموسيقى الشرقيّة، ولولا التوازن المتين في قواه العقليّة لما نتج عن هذا الدرس المختلط سوى الاضطراب والتعقيد. على أنّ وديع صبرا قدر أن يملك ناصية الفنّين في وقت واحد. فينما هو يشتغل في تعميم الموسيقى الأوروبيّة في بلاده نراه في باريس يشتغل بدون ملل بين أرباب الفنّ ليحبّب إليهم الموسيقى العربيّة ويكشف لهم مخبّآتها.

ويلذّ لي أن أصرّح أنّ وديع صبرا هو أستاذ ذو مكانة سامية، فهو يكاتب ويتكلّم لغتين من لغات الموسيقى مختلفتين عن بعضهما كلّ الاختلاف، ويفهم جمال الاثنتين على حدّ سواء. وهذا حدث مفرد في تاريخ الفنّ.

***

هذا ما يقوله عن وديع صبرا كبير من كبار الموسيقيّين في الغرب، ويلذ لي في هذه الفرصة أن أنشر هذه السطور ليصير "للأنبياء شيء من الكرامة في وطنهم".

وديع صبرا (1876 – 1950)

إعداد الأب يوسف طنوس

وديع صبرا، موسيقي وملحّن، ولد في عين الجديدة في منطقة بحمدون، في 1876/2/23 في عائلة بروتستانتيّة. درس في المدرسة البريطانيّة في بيروت، حيث كان أبوه مديرًا وأمّه مدرّسة. تابع دراسته في الكليّة الأميركيّة (التي أصبحت الجامعة الأميركيّة فيما بعد). بدأ دراسته الموسيقيّة مع الآنسة غرايس أمين شكّور، ومع تيودورا كسّاب والبارون النمساوي فون ريبلاين (Von Rublein).

نال منحة من قنصل فرنسا العامّ في بيروت لمتابعة دروسه الموسيقيّة في كونسرفاتوار باريس سنة 1892، حيث درس مع كبار الأساتذة والموسيقيّين، خاصة كميل سان سانس (Saint-Saëns). درس التأليف الموسيقيّ مع ماكس دولون (Max d'Olonne) فأنهى الدراسة في سنة بدل 3 سنوات. وكان في صف بول فيدال (Paul Vidal) وألكسندر غييمان (Alexandre Guilmant) في المرافقة على الأرغن والبيانو، ودرس تاريخ الموسيقى والغناء على العالِم الموسيقيّ بورغو ديكودري (Bourgault-Ducoudray).

خلال إقامته في باريس، عمل وديع على شرح الموسيقى العربيّة، فألّف كتابًا أسماه: "الموسيقى العربيّة، أساس الفن الغربي"(la musique arabe, base de l'artoccidental). وكان همّه كيفيّة إدخال الهارموني على الموسيقى اللبنانيّة. وإعجابًا به، طلب مدير مجلة المسارح والحفلات الكبرى من أستاذه ألبير لافينياك (Albert Lavignac) أن يكتب مقالًا عنه.

عاد موقّتًا إلى لبنان سنة 1908، حيث اشترك في مباراة تلحين النشيد الوطنيّ العثمانيّ. فاختارت لجنة الحكم لحنه، فزار تركيا والقسطنطينية بدعوة من الباب العالي، حيث تمّ تكريمه وتعيينه قائد أوركسترا البحريّة العثمانيّة في إسطنبول مدة خمسة عشر شهرًا. ثمّ قدّم النشيد المذكور في باريس ولندن. وكانت عودته النهائية من باريس إلى لبنان بعد أن قدّم حفلًا موسيقيًّا كبيرًا في 1910/3/27.

أسّس مدرسة "دار الموسيقى" في منطقة زقاق البلاط في بيروت سنة 1910، بمرسوم من السلطان عبد الحميد. وأصدر مجلّة موسيقيّة شهريّة، كانت الأولى في العالم العربيّ من حيث منهجيّتها العلميّة.

خلال الحرب العالميّة الأولى، نُفي وديع إلى سيواس في تركيا سنة 1915. وهناك أُجبر على تأسيس وإدارة معهد موسيقيّ في كليبولي، ولم يُسمح له بالعودة إلى بيروت إلّا سنة 1917، حيث أدار أوركسترا الدرك إلى أن قدّم استقالته سنة 1920، ليعود لإطلاق مدرسته الموسيقيّة التي أُقفلت خلال الحرب.

سنة 1919 زار باريس ليقدّم إلى الفيزيائيّ الفرنسي ليون (Gustave Lyon) حصيلة أبحاثه الموسيقيّة على السلّم الشرقي. وفتحت له صالة بلايل (la Salle Pleyel) مشاغل علم الصوت خاصتها، ليقوم بتصنيع البيانو الشرقيّ الذي يمكنه تأدية المقامات الشرقية. فصنّع آلتي بيانو كما صنّع آلة مونوكورد (بيانو غربيّ وشرقيّ في آن).

سنة 1921، تزوّج أدال ميسك وتبنّى فتاة إسمها بديعة، أصبحت فيما بعد مغنية أوبرا وأستاذة الغناء الأوبراليّ في المعهد الموسيقيّ الوطنيّ في بيروت، وفي كليّة الموسيقى في جامعة الروح القدس في الكسليك (السيدة بديعة حداد).

قام بعدّة جولات أوروبيّة وعربيّة ناجحة، ما بين 1922 و1925 عرض فيها أبحاثه الموسيقيّة واختراعاته.

سنة 1925، حوّل "دار الموسيقى" إلى "المدرسة الوطنيّة للموسيقى" ومن ثمّ إلى "المعهد الوطنيّ للموسيقى" سنة 1929 بدعم من الحكومة اللبنانيّة.

ترأّس الوفد اللبنانيّ إلى مؤتمر الموسيقى العربيّة الأول في القاهرة سنة 1932، حيث شارك بفاعليّة في أعمال لجان المؤتمر، مانعًا مع بعض المشاركين، من القبول بتقسيم السلّم العربي إلى 24 ربعًا متساويًا، كما قدّم البيانو الشرقيّ الذي عمل عليه مع بشارة فرزان.

توفي في 10 نيسان سنة 1950، إثر مرض قلبيّ. وبينما كان يريد أن يسلّم نتيجة أبحاثه ومكتبته إلى ابنته، فقد توزّعت بين أحد أقارب زوجته، وابنته والمعهد الوطنيّ للموسيقى.

لحّن النشيد الوطني اللبناني الذي ألّفه رشيد نخله، ونال الجائزة الأولى عنه، فتمّ اعتماده نشيدًا وطنيًّا سنة 1927. كما لحّن أوّل أوبرا باللغة التركيّة "رعيان كنعان" (Les bergers de Canaan)، وأوّل أوبرا باللغة العربيّة "الملكان"(Les deux Rois) سنة 1929. كما عُرضت أوبراه الفرنسيّة "المهاجر" (L'émigré) في السنة نفسها.

نشر بعض أبحاثه ومؤلّفاته الموسيقيّة في كتب ومجلّات في لبنان وفرنسا. فله 4 أبحاث منشورة، و4 أعمال أوبرا، و30 تنويعًا لألحان شرقيّة لآلة البيانو وأخرى للأوركسترا، كما له أنشودتان لموسى وللميلاد، وكتاب ترانيم بروتستانتيّة، بالإضافة إلى أعمال كلاسيكيّة متنوّعة وقصائد ملحّنة وأناشيد.

تذكره موسوعة لاروس الموسيقية، (Encyclopédie de la Musique de Larousse) كأحد روّاد الموسيقى في لبنان.❑❑

حكاية الثعلب والسلحفاة

حكاية من الفولكلور الكردي

ماجد الحيدر
العراق

❑ ذات مرة اجتمع الثعلب والسلحفاة وقررا أن يتعاونا على زراعة الحقل بالحبوب. وحدث أن الغلة كانت وفيرة تلك السنة. وعندما جاء الوقت لتقاسم المحصول جلسا معاً وقالا:
- كيف نتقاسم محصولنا هذا العام؟
قال الثعلب:
- فلنقسمه الى كومتين ونتسابق في الركض عبر الوادي ومن يصل قبلاً يختر حصته كما يشاء.

أدركت السلحفاة ما يدور في خلد الثعلب لكنها أجابت:
- حسناً يا أخي. ليكن الأمر كما تقول.
عند المساء عاد الثعلب الى بيته فرِحاً مستبشراً ونادى زوجته:
- تعالي يا زوجتي. أتعرفين ما فعلتُ؟ لقد صار البيدر كله لنا.
أما السلحفاة فقد توجهت الى إحدى صاحباتها السلاحف وقالت لها:
- لقد خرِب بيتي! الثعلبُ يريد أن يسرق المحصول برمّته.
ثم قصت عليها الحكاية فقالت لها صديقتها:
- هل تعرفين ماذا نفعل بالثعلب؟ غداً صباحاً توجّهي أنت صوب الوادي، أما أنا فسوف أسبقك الى الحقل وأخبئ نفسي في كومة الحبوب الكبرى، ومتى ما وصل البيدر سأخرج له وأقول له: هذه الكومة من حقي لأنني وصلتُ قبلك.

حضر الاثنان في الصباح وانطلقا يتسابقان عبر الوادي ولكن أنّى للسلحفاة أن تلحق بالثعلب؟ وهكذا سبقها الثعلب ووقف عند الكومة الكبرى، غير أن السلحفاة الثانية التي لا يمكن تفريقها عن صاحبتها برزت له وصاحت:
- هيه. هذه كومتي. لقد اخترتها لنفسي إذ وصلتُ الى هنا وأنت لمّا تزل في بطن الوادي.

عض الثعلب على شفاهه وأدماها من الغيض وقال:
- هذه والله قصة مؤلمة.
لكنه أغمض عينيه واستحضر كل ما في جعبته من مكر وخداع وقال:
- لا. انا لا أرضى بهذه الطريقة في القسمة. لتكن الكومة الكبرى من نصيب أكبرنا عمراً.

قالت السلحفاة :
- حسناً. قل لي في أي عام ولدتَ؟
- لقد جئتُ الدنيا في السنة التي جاء فيها آدم.

ما أن سمعت السلحفاة ذلك حتى انهارت باكية وانهمرت الدموع من عينيها. تعجب الثعلبُ وسألها:
- علامَ تبكين يا أختي؟
- آه، آه. تبا لك! لقد ذكّرتني بولدي الشاب ذي الثمانية عشر ربيعاً. لقد مات في تلك السنة بالتحديد!

نظر الثعلب اليها وقال:
- تفٍّ على هذا الوجه! قد كنتُ أعلم أن هذه التجاعيد على رقبتكِ ليست وليدة العام!❑❑

انفصام ثقافي وسلاح دمار شامل

الفضل شلق
لبنان

❑ حرّم الدين الانتحار. من أعطى الحياة يأخذها. من يخلق الإنسان يميته. لا تدخل الروح جسم الإنسان إلا عن طريق الله، ولا تخرج إلا بإذن منه. المسلم إذا انتحر لا يُصلى عليه. انتحل صفة من أعطاه الحياة، فانتزعها بيده من نفسه. إذا فعل ذلك صار بمنزلة الكافر أو المشرك. هل يكون الانتحار الجماعي بمثابة الانتحار الفردي؟ الجماعة البشرية تقوّض الطبيعة؛ تقضي على البيئة عن طريق العلم الحديث، والاحتباس الحراري، والخلل البيئي. لا يستطيع الإنسان أن يبقى ويعيش دون الطبيعة ومواردها. موت الطبيعة من آثار فعل الإنسان.

مع انتهاء الطبيعة، ينتهي الإنسان. هل ينتهي الإنسان بإرادته من غير إرادة الله؟ وهل يمكن أن يكون للإنسان إرادة غير إرادة الله؟ هل تنتحر البشرية بغير إرادة الله؟ أسلحة دمار شامل بمختلف أنواعها يمكن أن تؤدي الى نهاية البشرية. هي بمثابة صنع أدوات الانتحار الشامل. تضع الموت الجماعي على لائحة الانتظار. تجعل الموت انتحارا أعلى الاحتمالات. دول دينية تصنع أدوات الانتحار الجماعي. هي تؤمن أصلاً أنه لا شيء يحدث على الأرض دون مشيئة الله. أمره هو الأعلى. هو البداية والنهاية. نظرية الخلق تعزو البداية، أو الخلق، له ولإرادته. هل تكون النهاية بغير إرادته؟ إذا الله قد أمر بالبداية فهل تكون النهاية عن طريق عبيد الله دون علمه؟ وهل يمكن أن يحدث شيء على سطح الأرض دون إرادته؟ وإذا كان الأمر صحيحاً، فإن مبدأ كون الله أصبح مهددا.

ان استنساخ الحيوانات قد اعترض عليه لأن الخلق مناط بالله، فكيف يكون الأمر متعلقاً ببقاء أو فناء الجنس البشري عن طريق الله. هذه تساؤلات تطرحها عقول تفكر ولا تعتبر أن الأمر لا يعنيها. الدين الذي أقحم نفسه في البداية يجب أن يفعل الأمر نفسه بخصوص النهاية، ولا يمكن اتهامه بالإهمال وتجنب الأمور التي لا يريد الجواب عنها كي لا يثير حفيظة الحلفاء من الطبقة العليا، وبالطبع هذه الطبقة العليا هي من يموّل العلم الحديث من جهة، ويموّل الفقهاء من جهة أخرى ليقولوا عكس ما يقوله العلم الحديث عندما تلزم الحاجة.

حتى الآن ما زالت قوى الإسلام السياسي تعتبر نفسها غير معنية بأمر الاحتباس الحراري وخلل الطبيعة. أو هي حليفة الرأسماليين من أصحاب المنشآت التي تبعث على التلوّث وتصر على عمليات إنتاج تنتج التلوّث. فهل هذه الطبقة مستعدة لأخذ موقف بين مسببي التلوّث ورافضيه؟ أم تعتبر أنها يجب أن تقتصر على الأمور الدينية، بما يشمل الحيض والطهارة، وتبقى في إطار الكتب التراثية، بعيدة عن مناقشة أمور العالم المعاصر؟ يعني ذلك إدخال الدين في السياسة. لكن لا عن طريق فصل بينهما، وإنما عن طريق إخضاع الدين للسياسة كما كان الأمر في دولة الرسول. في مكة أسس محمد الدين، وفي المدينة أسس الدولة، وأخضع الدين للدولة. الذين يريدون إخراج الدين من المجتمع والسياسة هم الزهاد. وإذا أراد الدين عن طريق أصحابه أن يبقى في السياسة فعليه تبني قضايا الناس والنضال ضد الشركات الكبرى التي تلوّث الطبيعة، مما يقود الى نهاية البشرية عن طريق الانتحار الجماعي؛ والانتحار الجماعي كفر. هو انتحار جماعي تفرضه الرأسمالية العليا على البشرية.

في علمانية فصل الدين عن الدولة، نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله. المطلوب ممارسة السياسة ضد قيصر الذي يعمل على إنهاء البشرية، وتجنيد رجال الدين معنا ضد الثروات الكبرى الملوثة، ومساهمتهم في تعميم الوعي ضد الرأسمالية، وإلا صاروا بطريقة أو باخرى، عدة شغل عندهم. كل ادعاء للحياد في هذا الموضوع، بالأحرى في هذا الصراع هو انحياز لصالح أصحاب الثروات الكبرى في العالم وأنظمة الاستبداد في بلادنا. دافع رجال الدين عن الثورة المضادة طويلاً. نعرف ذلك نحن العرب. فقد كانوا أعداء الثورة وحلفاء الاستبداد والحروب الأهلية؛ آن الأوان ليكفّروا عن خطاياهم ويناضلوا مع الناس ضد التلوّث والانتحار، ومن ورائهما الرأسمالية الكبرى والامبريالية. كما حجزوا أكبر كمية من لقاحات الجائحة لأقوامهم في بلادهم، يعملون على دفع الصناعات والزراعات الملوثة الى البلدان الفقيرة لتلقى هذه المصير المشؤوم المحتوم.

منذ زمن طويل انفصل رجال الدين عن الدولة. انفصلت المؤسسة الدينية عن أهل القلم (الدواوين) وعن العسكر، وهم قاعدة أنظمة الاستبداد في كل مكان وفي كل العصور. حصر رجال الدين، ورثة الأنبياء، أو ولاة الفقيه، أمور بحوثهم في الدين وفي كتب التراث وفي مسائل الطهارة والحيض والعدة والطمث، وصاروا على الصعيد السياسي جيشاً احتياطيا للاستبداد. يبتعدون عن القضايا المعاصرة، إذ هي ليست في كتب التراث، ويركزون اهتمامهم في قضايا كانت تفيد الأسلاف ولم تعد تفيد المعاصرين. فعلوا ما أراده الاستبداد بالانحياز عما يفيد الى ما لا يفيد من العلم والايديولوجيا؛ عطلوا فعاليتهم. ابتعد وعيهم عن مشاكل الفقر والاستغلال. والآن يعتبرون التلوّث الذي يكاد يطيح بالبشرية لا يدخل في اختصاصهم، على اعتبار أن الله يحيي ويميت. ما لهم من سطوة جيّروها لصالح الاستبداد ولصالح تجهيل الجمهور العريض. ما فعلوا هو تحييد الجماهير عن الصراع ضد السلطة والاستبداد، وعندما انفجرت الثورة، خاصة منذ 2011، انحازوا الى صف الثورة المضادة والاستبداد. هم ساهموا في إنتاج وعي زائف، وفي إكثار الجماهير الجاهلة، وفي إخراج كل هؤلاء من قضايا العصر. عمليا، أخرجوا المجتمع من العصر. أدت أفعالهم والوعي الذي ينشرونه الى عزل الأمة في العالم، وعزل ثقافتها عن ثقافة العالم. وتقوقعوا حول كتبهم التراثية الصفراء. انتجوا ايديولوجيا تقول أن "الإسلام هو الحل". الحل لكل معضلة، ومنعوا عليه أن يكون حلا لشيء. هم في صلب المجتمع الآن. إذا أرادوا أن تكون منهم فائدة لمن ينتمون إليهم، فعليهم إخراج أنفسهم من المجتمع أو الاندماج في نضال الفقراء والمحكوم عليهم بالانتحار ضد السلطات التي استشرس أمرها مع الثورة المضادة في أعقاب الثورات العربية عام 2011.

والعلمانيون الذين يزعمون الاكتفاء بشعار فصل الدين عن الدولة، عليهم العمل لإخضاع الدين للدولة، وإدراج الدين في الثورة ضد الاستبداد والثروات المبالغ فيها والفساد الناتج عنهما. إذا أراد العلمانيون فائدة لنضالهم، فإن عليهم هم الآخرون عدم التغاضي عن فساد العلوم الدينية أو رجالها الذين أصبحوا سلاح بيد الثورة المضادة.

عن العقلية العربية

الطيب طهوري
الجزائر

❑ العقلية العربية عقلية ريعية، اتكالية، خضوعية وادعائية ... ريعية، تعتمد في معيشها المادي على ريع الأرض وعلى الآخرين من الأمم الأخرى، تصدر لهم ماهو طبيعي في أرضها من بترول ومعادن وتستورد منهم ما يشبع حاجاتها المادية ... في فكرها هي ريعية أيضا، لا تشغِّل عقولها،لم يترك أسلافها لها ما تفكر فيه ... قال فلان وقال فلان أو عن فلان عن فلان، هوتفكيرها.

وهي اتكالية، لها شيوخها الذين يوجهونها ويحددون لها نمط حياتها ... ولها السماء توجه إليها أكفها وتنتظر خيرها ... في تنظيم حياتها، لا تتعب حياتها، حكامها هو الذين يتولون المسؤولية عنها في تعيين مسيري شأنها العام ... هكذا هو دأبها عبر كل تاريخها ... ولأنها كذلك، فهي خضوعية بالضرورة ... وحتى إذا أتيحت لها الفرصة لتختار فغنها تختار من يواصل إخضاعها، ليس إلا، ولا تختار من يتبنى فكرا ديمقراطيا يجعلها تتحمل مسؤوليتها وتختار.

هذه العقلية تحارب كل فكر مخالف لنسقها العقلي/ الثقافي العام، نسق التشابه/ القطيع ... في قديمها حاربت مبدعيها ومفكريها المخالفين (ابن سيناء، ابن الرواندي، الرازي، الحلاج، المعري، ابن رشد ... وغيرهم كثيرون) ... في حاضرها (طه حسين، حسين مروة، مهدي عامل، نصر حامد أبوزيد، نوال السعداوي، أدونيس،عبد القادر علولة، أراكون ... إلخ).

أما ادعائيتها فتبدو في النظر إلى نفسها على أنها خير أمة أخرجت للناس، وأنها هي الأمة المنوط بها هداية الناس إلى طريق الخير (دون ان تنتبه إلى أنها غارقة حتى آذانها في التيه) وأن دينها فيه كل شيء، سياسة واقتصادا وعلما ... و ... و.

خلاصة الحال أننا نحن العربَ ما نزال مجتمعات تقليدية بدوية، سواء في تفكيرنا أو في علاقاتنا الاجتماعية أو في النظم التي تحكمنا ... ما نزال نسيِّر أمور حياتنا وفق الحلال والحرام، وبنفاق كبير وتناقضات عجيبة، بدل النافع والضار ... بدل النافع والضار ... ما نزال نتعامل مع الناس على أساس هذا مسلم فهو منا، وذاك كافر فهو عدونا ... لا يزال تعليمنا تتحكم فيه الإيديولوجية الدينية والطريقة الإلقائية، بدل العقلانية ... ما تزال الأنظمة التي تحكمنا أنظمة استبدادية تحكم بقانون القوة بدل قوة القانون، وتتصرف في ممتلكات الدولة وكأنها ممتلكات عامة، لا فرق في ذلك بينها وبين أنظمة الخلافة في العصور الأموية والعباسية والعثمانية ... إلخ ... ولا يخضع الحاكم فيها للمراقبة والمحاسبة والمعاقبة ... وهي بذلك لا تختلف في شيء عن أنظمة الحكم القديمة ... ما نزال نسيِّس الدين وندينّ السياسة ... ما نزال لم ندخل بعد العصر الحديث، عصر التفكير العلمي والمعرفة والعلمانية والديمقراطية.

ما يؤزم الوضع أكثر ان تلك العقلية ترتبط بالمقدس ... ذاك المقدس يعطيها مصداقية أكثر لدى عامة الناس ويجعل حربها التي تواجه بها كل فكر مخالف مشروعة وذات مشروعية. هذه العقلية هي العقلية التي تحرص أنظمة الاستبداد والفساد على استمرارها، كما تحرص القوى الإسلاموية على استمرارها أيضا.

بقاؤنا نعيش بهذه العقلية يعني استمرارية بقائنا في تخلفنا وتبعيتنا. ترى، كيف نخرج من هذه الوضعية المفلسة؟.

لا طريق سوى تفكيك الثقافة التي كونت تلك العقلية ورسختها، واظهار مخاطرها وكيفيات تحكمها في أذهان ونفوس الناس ... لابد من نشر الفكر النقدي بشكل واسع وتغيير المنظومة التربية بما يجعلها منظومة تبني العقول الواعية المسؤولة التي بدورها تجعل الفرد مواطنا حرا، لا رعية خاضعة.

للاسف،الامر صعب وصعب جداً في مجتمع لا يقرأ، ولا يقرأ المختلف أساساً... ولا يشغل عقله ... ويهتم بالشكليات وما هو غير جوهري في الحياة ❑❑

أوصياء الدين الذين يدعون الى مواجهة الإمبريالية (أميركا) يعادونها ثقافيا ويقلدونها في شؤون العصر وأهمها سلاح الدمار الشامل. يقلدونها في التقنيات.

هم لا يواجهون الولايات المتحدة بل يحذون حذوها، والتفاوض يدور حول هل يحق لهم امتلاك سلاح الدمار الشامل. وليس معروفا إذا كانوا يصنعون سلاح الدمار الشامل بادمغة محلية أو مستوردة او معارة. لا يقلدون الغرب في أمور الإنتاج والتنمية، بل يقلدونه في أمور السلاح والفقر، ما يدفع أكثر وأكثر باتجاه حروب الإبادة والانتحار الجماعي. كل ذلك مع عدم استبعاد شبهة أن الرأسمالية الكبرى (الغرب) تريد فناء جزء كبير من البشرية. فكيف يبرر رجال الدين وأتباعهم أمام أنفسهم قضية الانتحار الجماعي. ألا يؤدي تقليد الغرب في التقنيات وتقليده في تطوير واستخدام أسلحة الدمار الشامل الى حروب الإبادة الجماعية والمشاركة في الكفر؟

علة عدائنا لسلاح الدمار الشامل (ومنه تدمير البيئة الصالحة لبقاء الإنسان)، بل عداؤنا لكل أسلحة القتل والدمار، نابع من موقف إنساني، مما نعتقده موقفا في صالح بقاء الجنس البشري. عداؤهم للإنسان يدفعهم الى تبني سلاح الدمار الشامل. والأمر يشمل الدول الدينية الشيعية والسنية. هم لا يدافعون عن انفسهم، بل يشاركون في الدفع نحو الانتحار والكفر. وهناك طرق وأساليب أخرى للدفاع عن النفس، منه الإنتاج والتنمية والعمل في سبيلهما، والتعليم والتربية ورفع مستوى المعرفة الحديثة في المجتمع، وجعلها قيمة بذاتها ولذاتها.

لم تخرج مجتمعاتنا بعد من المعرفة التراثية ولم تخرج من ماض جعل لها المثل الأعلى هو الفتوحات والتوسّع اللاحق وانتشار الدين حتى صار تعداد المسلمين أكثر من مليار ونصف بشري. أي ما بين ربع وثلث البشرية، ولا خوف عليهم.

لكن الوعي السائد هو أن التكنولوجيا ليست مسألة ثقافية ولا علاقة لها بالثقافة. ولا تتعلّق بالحلال والحرام، ولا بالمقدسات. هي من أمور الدنيا المباحة. ولا يدركون أن هذا المباح أتاح التفوّق للغرب. لا التفوّق التقني وحسب بل التفوّق الثقافي أيضاً. فالتكنولوجيا تصنعها الثقافة. تصنعها المعرفة والمعاصرة والحداثة. تشكلت ايديولوجيا، على هذا الأساس، ترفض الثقافة الكونية المعاصرة وتقبل التكنولوجيا المستوردة. ولا تدرك أن هذه التكنولوجيا المستوردة تولد بعيدا عن الدين. لها ثقافتها الخاصة على غير ما أراد الدين. صار للتكنولوجيا قداسة خاصة بها غير القداسات الدينية التقليدية. أصيبت نتيجة ذلك هذه المجتمعات الإسلامية بالانفصام. وصارت للمجتمعات الإسلامية شخصية أخرى، أو ثقافة أخرى، بجانب الثقافة التقليدية. وإن لم يحدث الاعتراف بها. شل هذا الانفصام المجتمعات الإسلامية وأقعدها عن التقدم، والحداثة، والتطوّر المتوازن، بدل النظر الى الأمام. وما زالت الأبصار مرتدة الى الوراء.

فمن جملة الوراء الماضي الإسلامي وغير الإسلامي. فعادت الاعتبارات الامبراطورية، وكأن القوميات داخل المجتمعات الإسلامية عادت للجاهلية والأحلام امبراطورية من الماضي السحيق، ولا تمت بصلة الى العالم المعاصر. الانفصام أدى الى شلل هذه المجتمعات وسقوطها في ركود فكري وسبات الوعي. لا يدركون أن استيراد التكنولوجيا ونمو انتشارها بمعزل عن الثقافة الموروثة والسائدة في آن معاً، يؤديان الى انفصام داخل المجتمعات الإسلامية وحروب أهلية داخل كل ذات فردية. الفاشية الإسلامية حصيلة نوع غير متوازن في المجتمع، ناتج عن انفصال التكنولوجيا عن الثقافة، والمعرفة الحديثة عن الدين.

في المجتمع الواحد ثقافة تقليدية غير معنية بالمعاصرة، وثقافة "حديثة" معنية بالتكنولوجيا والثقافة الناتجة عنها. ليست التكنولوجيا محايدة (passive) بل هي تؤسس لثقافة حديثة لا تمحي الثقافة التقليدية بل تجلس بجانبها. ففي عقل كل من المسلمين ثقافتان لا تريدان الاختلاط والامتزاج والدمج، بل الانفصال والانفصام! العقل الذي أنتج التكنولوجيا في الغرب لم يدع الدين وشأنه بل غيره وأخضعه للسياسة وأتبعه للدولة؛ والعلم الحديث، وهو قاعدة خرجت منه التكنولوجيا، وضع حدودا للعقائد والطقوس الدينية. لا تستطيع أي ثقافة أن تمس بالإيمان لكنها تستطيع تدمير العقائد والطقوس إذا أراد أصحابها. العقائد الدينية في المجتمعات الإسلامية تهدد الإيمان وما تزال صامدة ترعى الانفصام الثقافي. ذلك في أساس الشلل الفكري والتأخر اللذين تعاني منهما هذه المجتمعات.

فقدت المجتمعات الإسلامية وحدتها الداخلية القائمة على اندماج الروح بالحياة اليومية واتحاد الثقافة مع العلم الحديث. صارت الثقافة الموروثة في مكان ما، جامدة كأنها في ثلاجة، بينما الحياة اليومية تسيطر عليها تكنولوجيا مستوردة تنتج ثقافة أخرى. انفصام؛ إذ هما في خطين متوازيين لا يلتقيان. ذلك أيضا انفصام في كل فرد في هذه المجتمعات. ربما نجد في هذا الانفصام تفسير للتأخر بل الشلل الفكري الذي يعيق التقدم ❑❑

عاهرة باب أوّل

ماري القصّيفي
لبنان

❑ بدت اليافطة الأنيقة الخفرة في غير مكانها. ففي مدخل البناء الفخم، وعند بوّابته الإلكترونيّة النظرات، لا يتوقّع المرء أن يجد كلّ يوم، بين يافطات مختلفة الخطوط واللغات لأطبّاء ومهندسين ومحامين، واحدة تعلن عن مكتب للخدمات الجنسيّة.

لكن هذا ما حدث للأستاذ الجامعيّ الذي كان يلج المكان للمرّة الأولى، قاصدًا طبيب أسنان أرشده إليه زميله في التعليم.

بُهت الرجل الأربعينيّ حين وقعت عيناه على اللوحة ذات الخطّ المرسوم بعناية فنّان وذوقه: خدمات جنسيّة راقية - ط 3، وراح يتساءل كيف يرضى أصحاب الشقق الأخرى بوجود بيت دعارة بينهم، وكيف تكون الخدمات الجنسيّة الراقية في مكان يقصده زوّار وضيوف لا يتوقّعون أن يجدوا شقّة مشبوهة بين مكاتب وعيادات محترمة.

أفكار كثيرة تصارعت في رأس الدكتور وهو يقاوم رغبته في استكشاف هذا الأمر، مقنعًا نفسه بأنّ من واجبه كأستاذ للعلوم الاجتماعيّة أن يعرف ماذا يجري في هذه المدينة الملأى بالعجائب والغرائب. فلعلّ الموضوع يصلح لاحقًا مادّة لكتاب جديد وعد ناشره بإعداده لمعرض الكتاب المقبل. ألقى نظرة على الساعة في هاتفه المحمول، فوجد أنّ الوقت يسمح له بإرضاء فضوله قبل موعده مع طبيب الأسنان.

باب غرفة الناطور نصف مغلق، وما من حركة تشير إلى أنّ أحدًا سيلاحظ أنّ الدكتور سيضغط على زرّ الطابق الثالث. ثمّ إنّه غريب عن المبنى، ولن يعرفه أحد فيه، وسيسهل عليه أن يقول إنّه أخطأ في الطبقة، إن وَجد في المشهد كلّه ما يثير الريبة أو ما قد يحرجه.

في الطبقة الثالثة، ثلاث شقق: مكتب محاماة، مكتب الخدمات الجنسيّة، ولا يافطة تشير إلى وجهة استخدام الشقّة الثالثة التي بدا بابها مغبرًا عتيقًا كأنّها غير مأهولة.

على باب شقّة الخدمات، دعوة بخطّ صغير تطلب من الزائرين قرع الجرس والدخول. وهذا ما فعله عالِم الاجتماع.

استقبله صوت فيروز، فتراجع إلى الخلف خطوتين ليتأكّد من أنّه لم يخطئ في العنوان. وكاد يهرب خجلًا من صوتٍ حنون ينطلق من حيث لا يدري ليقول بلهفة صباحيّة صادقة: تبقى ميّل تبقى سآل، متل الأول ضلّ سآل... وحين تأكّد من أنّ الشقّة هي فعلًا شقّة الخدمات الجنسيّة تساءل عمّا تفعله فيروز هنا!!!

المكان غارق في الضوء، ونباتات جميلة ونادرة تزيّن الزوايا، ومكتب أنيق إلى يمين المدخل، ولا أحد خلفه. لكن يبدو أنّه حين قرع الجرس ودخل، ثمّة من تنبّه إلى وصول زائر (زبون) فظهر خيال خلف باب عريض زجاجيّ يفصل بين المدخل وسائر أقسام المكان، وقبل أن يفكر الدكتور بالهرب من جديد من موقف أقحم نفسه فيه، خرجت امرأة ثلاثينيّة، شديدة الأناقة، جميلة بشكل يقطع الأنفاس، وعلى وجهها ابتسامة ترحيب دافئة.

أصيب الرجل بدوار وظنّ أنّ في الأمر خدعة أو مقلبًا من ذلك النوع الذي يراه على شاشة التلفزيون.

صباح الخير. بادرته المرأة. بلا غنج أو دلال أو إغراء.

هل الجنس الراقي يكون بمثل هذا التهذيب والكبرياء؟ تساءل الدكتور قبل أن يسرع في الردّ كأنّه يدافع عن نفسه:
أعتذر، أنا أستاذ علوم اجتماعيّة ولفتني مكتبكم، هل يمكن لي أن أعرف المزيد عنكم؟

ابتسمت السيّدة وهي تومئ برأسها كأنّها تسمع هذا التبرير للمرّة المليون، ودعته بحركة من يدها للجلوس، بينما استقرّت هي خلف المكتب.

- أهلًا بك ومرحبًا. طبعًا من حقّك كأيّ زبون أن تسأل عمّا تريد، وأنا هنا من أجل ذلك. فليس هناك "نحن" لتعرف عنّا. أنا وحدي صاحبة هذه الشقّة ومديرة شؤونها. فماذا تريد أن تعرف؟

- عفوًا على السؤال الذي قد يبدو فجًّا: لكن أليس هذا بيت دعارة؟ يأتي رجل ليمارس الجنس فيه مع امرأة؟

- لا أعرف كيف تعرّف أنت بيوت الدعارة، أو ماذا يأتي الرجل ليفعل بالتحديد في بيوت الدعارة كما تسمّيها حضرتك. لنقل هو كذلك. أنتَ بالتحديد ماذا تريد؟ وماذا تفعل هنا؟

- قلتُ لك أنّني أستاذ جامعيّ لفتني الإعلان. ولم أحضر لأخون زوجتي التي أحبّها وأحترمها.

- دعني أوضح لك من البداية أنّ الرجل يخون نفسه ولا يخون أحدًا آخر. فقد تكون الخيانة في أن تنام مع زوجتك. ولكن ليس هذا موضوعنا. سأشرح لك آلية العمل عندنا لإرضاء فضولك العلميّ على الأقلّ.

أعطت المرأة الوقت لنفسها كي تبتسم بحريّة، وكي تتركه يستعدّ لما ستقول. وتابعت:

- حين يقصدني زبون طالبًا خدمة جنسيّة راقية، عليّ أن أجري معه مقابلة، تسمح لي بالتعرّف إليه وعلى ما يريد، انطلاقًا من ذوقه وأفكاره وأخلاقه ولباسه وطريقة تصرّفاته... ثمّ آخذ معلومات عن عمله وعائلته وصحّته، وأحدّد له موعدًا آخر بعد أن أقوم بدراسة الوضع وتقييم المعطيات. وقد أعتذر منه إذا لم أجد عندنا ما يناسبه من خدمات، أو أرشده إلى حيث تنتظره امرأة تقدّم له الخدمات الجنسيّة الراقية الملائمة له.

- يعني عاهرة باب أوّل؟؟؟ هتف الرجل ساخرًا كأنّه وجد لقية أو كنزًا، أو قال ما لم يسبقه إليه أحد.

حافظت المرأة على رصانتها وهدوئها وأجابت:

- إن أردت أن تصفها بهذا الشكل فلا مانع عندي. لكنّي أرى الأمور كلّها بمنظار مختلف. لذلك أتمنّى أن تقرّر ماذا تريد أن تفعل الآن، وإلّا فأنا مضطرّة لإنهاء المقابلة، إن لم تكن زبونًا.

وُجم الدكتور وشعر بأنّه طالب في الصفّ يتلقّى تأنيبًا على سوء السلوك، وكاد يغادر نادمًا على إقحام نفسه في مسألة غريبة كهذه، بل خشي أن يكون قد وقع في مصيدة تخرب بيته.

بدا على المرأة وهي تراقبه كأنّها تعيد قراءة عنوان عريض في صحيفة سبق أن قرأت تفاصيل الأخبار فيها. وقالت بهدوء واستفزاز:

- لا تخشَ يا دكتور من ردّة فعلي، فمن الواضح أنّك لستَ من طراز زبائننا، فلا قدرتك الماديّة تسمح لك بذلك، ولا شخصيّتك مؤهّلة لخوض غمار مغامرة كهذه. وسيبقى أمر زيارتك لنا سريًّا.

فجأة انتبه الرجل إلى الكاميرا الصغيرة المصوّبة نحوه، وتأكّد له من أنّه وقع في مصيدة عصابة ستبتزّه وتقضي على سمعته ومستقبله.

مرّة جديدة، بدت المرأة مستعدّة لتطوّرات المشهد، وتابعت:

- ما من أسرار في عالمنا اليوم، إلّا تلك التي نخفيها عن أنفسنا. الكاميرات موزّعة في المبنى كلّه، وأمام كلّ شقة ومكتب وفي المصعد. ويكفي أن أبحث عنك على صفحات المواقع الاجتماعيّة لأعرف من أنت وماذا تفعل. أو يمكنني أن أعرض صورتك على زبائني وكلّهم من السياسيّين والأمنيّين ورجال الأعمال وقادة الأحزاب، أو على السيّدات العاملات معي، وكلّهنّ من طبقات اجتماعيّة وثقافيّة وعلميّة راقية، كي أجد بالتأكيد من يعرفك ويعرف تفاصيل حياتك كلّها. لكنّي قطعًا لا أفعل ذلك. فاطمئنّ.

وقف الرجل على عجل. واستأذن بالمغادرة، كتلميذ صغير يريد أن يقضي حاجته التي حرّكها خوفه من الامتحان.

***

بعد أسبوع، عاد الدكتور إلى مكتب الخدمات الجنسيّة طالبًا امرأة تلائمه. لم تشر المرأة إلى لقائهما الأوّل، لكنّ الرجل عرف أنّها كانت تنتظره. سحبت أوراقًا من دُرج مكتبها، وطلبت منه أن يملأ الاستمارة، قبل أن تقول له: سأتركك مع صوت فيروز وأدخل لأعدّ لنا فنجاني قهوة. أم تفضّل شيئًا آخر تشربه؟

فيروز وقهوة وخدمات جنسيّة، ما الذي ينتظره بعد؟

وافق على القهوة، وأخذ القلم من يد السيّدة الجميلة، وبدأ يجيب عن الأسئلة.

***

بعد أسبوع آخر، وبناء على اتصال ورده من السيّدة، حضر الرجل إلى المكتب ليعرف إن كان نجح في الامتحان، وإن كان من طبقة الزبائن المرموقين، وإن كان يستحقّ نعمة الجنس الراقي.

استقبله صوت فيروز بأغنية "يا ريت إنت وأنا بشي بيت" فارتجف قلبه تفاؤلًا، ورأى نفسه في أحضان امرأة مثيرة من سيّدات المجتمع المخمليّ... وكاد لولا دخول السيّدة عليه أن يشمّ العطر الفاخر الفاجر...

دعته المرأة كي يتبعها، فاصطكت ركبتاه: هل الموعد هنا؟ هل تنتظره المرأة المثيرة خلف الباب الزجاجي؟ أيّ عالم ينتظره حين يعبر إلى الجانب الآخر من الشقّة؟ ثمّ تمنّى لو أنّ السيّدة أعلمته بذلك عند اتّصالها ليستعدّ للقاء من هذا النوع.

لكنّها استوقفته أمام خزانة فيها عشرات الملفّات، وسحبت واحدًا منها مختومًا، وسلّمته إيّاه وهي تقول مبتسمة بحنان:

- تجد هنا المعلومات المطلوبة عن السيّدة التي تلائمك، تلك التي وصفتها بأنّها عاهرة باب أوّل. وتجد كذلك طريقة اللقاء بها وسائر التفاصيل، حتّى المبلغ الذي تدفعه لها.

- ألستِ أنتِ من يهتمّ بالجانب الماديّ؟ سأل الرجل متعجّبًا.

- أنا أثق بالسيّدات اللواتي يعملن معي، وبهذه السيّدة خصوصًا. أجابت المرأة وهي ترافقه إلى الباب. ثمّ تابعت:

- أتمنّى، قبل أن تخوض هذه المغامرة، أن تقرأ الملفّ بعناية، وأن تتفحّص الصور والمعلومات التي أعدّها المكتب لك. فحين تعجبك تجربة الخدمات الجنسيّة الراقية لن يسهل عليك الإقلاع عنها.

لم يعرف الرجل ماذا يقول، فتركته السيّدة، وعادت إلى ما خلف الباب الزجاجيّ قبل أن تتاح له الفرصة ليشكرها، في حين كانت فيروز تقول: كان غير شكل الزيتون...

في السيّارة، فتح الرجل الملفّ متلهّفًا لمعرفة محظيّته التي ستؤمّن له متعًا جنسيّة لم تعرف امرأته يومًا كيف تحقّقها له، وإذا به يرى صورة زوجته، ملصقة على ورقة كتب عليها بالخطّ العريض:

بعد البحث والتنقيب، وَجد مكتبُنا أنّ زوجتك عاهرة باب أوّل وهي المرأة التي تستحقّها، لأنّ تحقيقاتنا، مع أهلك وأهلها وجيرانكما ومعارفكما وزملائكما، أكّدت لنا أنّها بلسانها السلّيط وأخلاقها السيّئة وعقدها النفسيّة وأقاويلها الكاذبة وتمسكنها المخادع ونميمتها الغبيّة، تمثّل العهر الحقيقيّ الذي يخرب البيوت والعلاقات! ❑❑

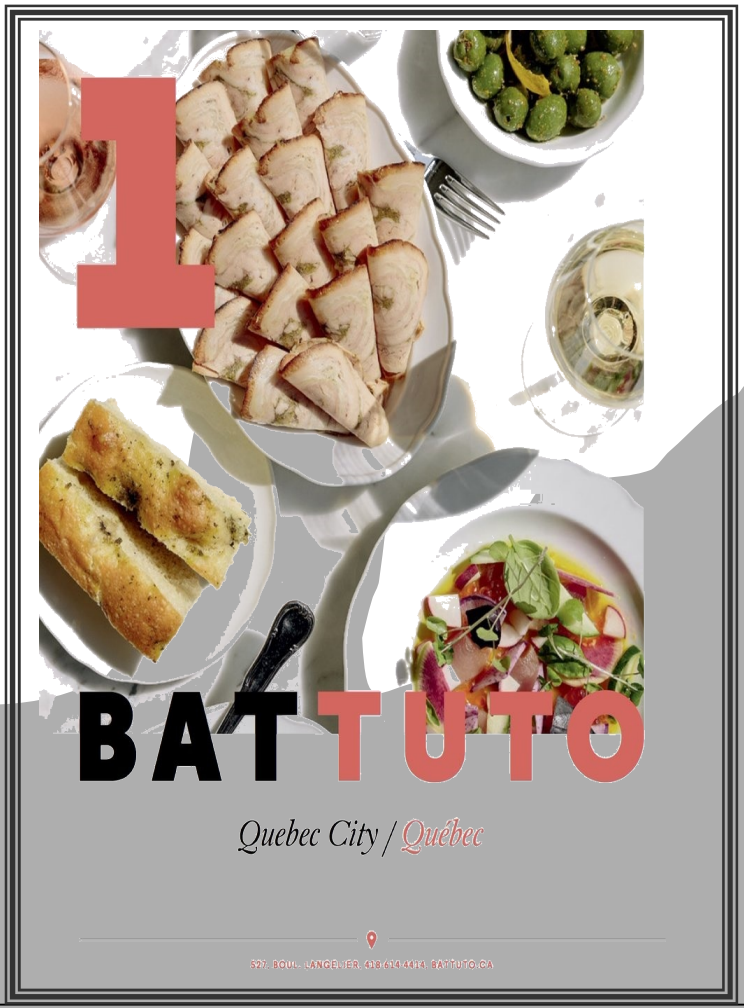

التطبيع وتبيئة إسرائيل

ارام محاميد
فلسطين

❑ كثير من الأفكار الواردة في المقال أدين بها لرفيقي وصديقي الدكتور شريف يونس.
**

كادت قلوب الجميع أن تجتمع على شعورٍ واحد، وآرائهم تتوحد على رأيٍ واحد عندما رأوا من هي الدّول "المطبعة حديثًا" مع إسرائيل (المغرب والإمارات والسودان والبحرين) وأكثر مقولة قيلت هي: "هذه الدّول مطبعة كل عمرها من تحت الطاولة".

وتصديقًا لهذه المقولة نشير إلى العلاقة التاريخيّة بين المغرب وإسرائيل، وهي علاقات متينة جدًا منذ عقود، وهنا أذكر حادثة تعود لعام 1965، تصفية البطل المهدي بن بركة المعارض الاشتراكيّ للملك والنظام المغربي، الّذي تم اختطافه في باريس وتصفيته بعملية مشتركة بين المخابرات المغربية والموساد، وما تزال تفاصيل هذه العملية المخابراتية غير معلنة حتى اليوم. ومما يذكر أنّه في عام 1966 أعدت صحيفة اسرائيلية -"هشوفعون"- عمودًا رئيسيًا عنوانه: "اسرائيليون في قضية بن بركة" وقامت أجهزة الأمن متمثلة بالشرطة والشاباك بمنع نشر أي معلومة عن الموضوع.

سابقًا كانت الدّول العربيّة تطبع مع إسرائيل تسليمًا بالأمر الواقع وتطلعًا لعلاقات مميزة مع أمريكا والغرب، كالتطبيع المصريّ في عهد أنور السادات، السادات من جهة سلّم بالأمر الواقع ومن جهة أخرى أراد علاقات صداقة وتحالُف مع الولايات المتحدة والغرب فطردَ المستشارين والعساكر السوفييت وسلّطَ الإخوان وسائر الصحوات على اليساريين والناصريين.

أما التطبيع الحاليّ فهو مرحلة مختلفة تتجاوز التسليم بالأمر الواقع، التطبيع الحاليّ هدفه تَبيئة إسرائيل، أي جعلها جزءً من البيئة الحضارية للمنطقة، وهذا ما لم يقدر عليه التطبيع السابق، حيث أن جوهر فكرة القبول بدّولة من الدّول هو الإقرار بمشروعية وجودها.

في التطبيع السابق لم يحدث أي تحول فكري عند الشعوب يجعلها تقرّ بمشروعية إسرائيل وعلى المستوى الشعبيّ كانَ رفضًا عارمًا للتطبيع من أساسِهِ.

ما هي مشروعية الدول؟
كل دولة في العالم قائمة بحكم الأمر الواقع، هذا صحيح. ولكن لا أحد يملك مشكلة مع قيام دولة لأنّه لا يشكّك بمشروعيتها؛ وما نقصده بمشروعيتها هو الأُسُس الفكرية الّتي تعطي الدّولة "حق" وجودها في وعي الناس، وغالبًا ما تكون هذه الأُسُس الفكرية عبارة عن تأويلٍ للماضي بصيغة الحاضر، وتصوير الحاضر كنتيجة نهائية لتراكم أحداث من الماضي كل هدفها الوصول إلى الدولة الحالية. ومن هنا تعطي كل أمة لنفسها "قوانينًا" تاريخية تعطيها الحق في الوجود وصفات مميّزة تتصوّرها لنفسها.

في حالة إسرائيل يمكننا أن نُجمِل مشروعية اسرائيل بأمرين:

- الإرث اليهوديّ التوراتي.

- اضطهاد اليهود في أوروبا.

كلا الأمرين غير مقبولين عند السواد الأعظم من سكان المنطقة، فمن جهة التراث التوراتي حول أرض الأجداد مرفوض عند سكان هذه المنطقة لأسبابٍ شتى. وبالنسبة لاضطهاد اليهود في أوروبا، فحتى أكبر المتعاطفين والمتضامنين مع مآسي الماضي الّتي مرّ بها اليهود في أوروبا يقول في قرارة نفسه: "لماذا أنا من تحملت خطيئة ما فعله الأوروبيون؟! ليعتذر الأوروبيون لليهود ويقيموا لهم دولة في بافاريا". هكذا فإنَّ فكرة المشروعية في وعي الجماهير تلعب دورًا حاسمًا. وكمثالٍ لا يبقِ مجالًا لعدم الفهم نذكر بما اقترفته بريطانيا العظمى، كانَت بريطانيا هي صاحبة وعد بلفور ولديها تاريخ استعماري طويل حافل بالجرائم والفظاعات ولكن لا تجد أحدًا يملك مشكلة مع وجود بريطانيا حتى عند أكثر الشعوب الّتي ذاقت الويل من بريطانيا، لأن فكرة عدم وجود مشروعية لوجود بريطانيا ليسَت موجودة في وعي الشعوب.

في التطبيع الجديد نرى عملية تبيئة شعبيّة لإسرائيل وليسَ مجرد تطبيعٍ بين سلطتين سياسيتين لديهما مصالح مشتركة، وهذا بشكل خاص واضحٌ وجلي في التطبيع مع الإمارات أكثر من غيرها.

لتسارع عملية التبيئة هذه عدة أسبابٍ ولكن في التحليل الأخير يكون السبب هو أنَّ القضية الفلسطينيّة لم تعد قضية القضايا في المنطقة. كل دولة منهمكة بمشاكلها وصراعاتها الإقليمية.

بسبب الخريف العربيّ بلغت صراعات المحاور أعلى مراحلها وبقيت فلسطين خارج المعادلة، محور إيران الّذي يحمل راية المقاومة والعداء لإسرائيل يعيش صراعًا مع الخليج ويعتبره تهديدًا حقيقيًا لبقاء هذه الأنظمة؛ إيران دولة نشيطة ومنتشرة إقليميًا ولولا الإسناد الأمريكيّ لهذه الأنظمة لربما أسقطتها إيران منذ سنوات.

أهداف ايران المعلنة هي اقتلاع إسرائيل وتلك الأنظمة وتأليب الشعوب ضدها، ولكن ما ترتب على سياساتها إقليميًا تطبيعٌ وتحالف معلن بين إسرائيل وتلك الأنظمة، تطبيعٌ قائم على مبدأ (win-win). إسرائيل حليفٌ قوي عسكريًا وتكنولوجيًا ولديه علاقات مميزة مع الولايات المتحدة، تستفيد هذه الأنظمة من التكنولوجيا والسلاح الاسرائيليّ في صراعها مع إيران وتأخذ إسرائيل بالمقابل اعترافًا يتجاوز الاعتراف الرسميّ فقط، وهذا يساعدها على محاولة تصفية القضية الفلسطينية تمامًا.

عرقلة المفاوضات والمماطلةُ مع الطرف الفلسطينيّ كانَت سياسة نتنياهو، وبربطٍ سريع مع فكرة المشروعية وكيف تكون عاملًا مهمًا في قبول ورفض التطبيع، أذكر حادثة (بالأحرى مناورة) من نتنياهو: طلب نتنياهو من الرئيس أبو مازن الاعتراف بإسرائيل "دّولة يهودية" ما وضَع الرئيس أبو مازن في موقفٍ محرج، نتنياهو يعرف مدى حساسية اعتراف من هذا النوع عند الفلسطينيّين، هكذا اعتراف ليسَ مجرد تسليمٍ بالأمر الواقع بل إقرارًا بمشروعيته أيضًا.

عودة للعلاقة بين إسرائيل والأنظمة العربية، نلاحظ: ليسَ قرب تلك الأنظمة من إسرائيل فقط بل ومن اليمين الإسرائيليّ بشكلٍ خاص، فما السبب؟ في تقديري هناكَ سببان أساسيان لقرب الأنظمة النفطيّة من اليمين الإسرائيليّ:

1. معاداة اليمين لل"دولنة" (ממלכתיות):
طوال حقبة نتنياهو شنَّ اليمين حربًا شعواءً على جهاز الدّولة في إسرائيل من الإعلام والقضاء والشرطة، وعمل على إضعافهم كي تكون تحركاته السياسية وفساده الماليّ فوق المساءلة والرقابة، وكان يطرب للتطبيل له ووصفه ب"ملك إسرائيل" وكانت الساتيرا الإسرائيليّة تجد مادةً دسمةً في تدخلات زوجته سارة بتعيين الساسة والقائمة الانتخابية لحزبه. في هذا الجانب اليمين الإسرائيليّ يشبه الأنظمة النفطية الّتي تديرها عائلاتٌ فوق المساءلة والقانون والرقابة.

2. جمهور اليمين:
جمهور اليمين بأغلبيته الساحقة هم من اليهود الشرقيين القادمين من الدول العربية، وليسَ فقط أنَّ هذا الجمهور لا يشبه الأشكناز وحافظ على معظم عاداته الّتي جاء بها من الدّول العربية، بل أكثر من ذلك، الدّولة والقيادة الاسرائيليّة رفضت استيعابهم ضمن الثقافة السائدة ووصفوهم بأبشع الأوصاف من على لسان قادة الحركة الصهيونيّة. بن غوريون: "اليهود من اليمن، اليهود المغاربة، العراقيون، الأكراد وكل هؤلاء الشباب قسم منهم شبه بريين. يجب أن تربي الشاب القادم من هذه الدول كيف يجلس على الكرسي مثل البشر" (لاقتباسات أكثر حول نفس الموضوع ممكن العودة لخطاب الرفيق عوفر كسيف في الكنيسيت).

حتى لا أُفهَمَ خطأً أنا لا أقول أنَّ الليكود يأخذ هؤلاء المضطهدين معه إلى سدة الحكم، إنما يستميلهم في إطار صراع نخب. ولكن حتى هذه الاستمالة تلعب دورًا في إدخال الشرقيين كمكونٍ ثقافيّ قوي ضمنَ الثقافة الإسرائيلية، وأفضل للأنظمة النفطية أن تمارس نشاطها في إسرائيل في بيئة ثقافية كهذه لا يسيطر فيها فقط المكون الغربيّ الأوروبيّ بل يحتوي على جانبٍ ثقافي يشبه التخلف الثقافيّ لهذه الأنظمة.

لعملية تبيئة إسرائيل المتسارعة تأثيرات في الداخل الفلسطينيّ أيضًا، فأكثر نقاش احتدم في السنوات الأخيرة هو "مسألة الهوية" وبات موضوعًا صاخبًا عند كل الأطراف. المحافظة على الهوية الفلسطينية كالقبض على الجمر ومنع أي "تلويثات" لها أصبح بحد ذاته عملًا نضاليًا وسموًا فكريًا وأخلاقيًا في نظر صاحبه وأداته للحكم على الآخرين؛ فمحور معظم النقاشات والمزايدات قائمٌ على مبدأ "أنا وطني محافظ على الهوية أكثر من غيري" وليسَ منافسة في الأمور العملية والميادين النضاليّة كما في السابق.

وفي الضفة الأخرى هناك الحركات ذات النشاة الغير وطنية تاريخيًا والّتي سلمت اليوم بعملية تبيئة إسرائيل كقدرٍ لا يُناقش، وأخص بالذكر الحركة الإسلاميّة الصهيونية الجنوبية ومنصور عباس. نهج منصور عباس ليس جديدًا وبذوره موجودة عند المؤسس عبدالله نمر درويش، مع فارق أنَّ الظروف لم تكن مواتيةً ليفعل عبدالله نمر درويش ما فعله منصور عباس، بهذا المنطق قلت مرة أنَّ منصور عباس هو عبدالله نمر درويش في أعلى مراحله. وبالمجمل هذا النهج قائم على تحويل الأحزاب العربية إلى جماعات مصلحة سياسية داخل النظام الإسرائيليّ بدل حركات وطنية تناضل لانتزاع الحقوق الجماعية وإحداث تغييرٍ جذريٍ، وتكتفي ب"المكاسب" المتوفرة من داخل النظام الإسرائيليّ، وهذه "المكاسب" لا تساوي عفطة عنز.

لا أعلم إلى أين تتجه عملية تبيئة اسرائيل ولكن هذه العملية تترافَق مع توحشٍ واضح للدّولة وأجهزتها بسبب شعورها بفقدان السيطرة الداخلية بعد حقبة نتنياهو والأضرار الّتي ألحقها بأجهزة الدّولة.

هذه المرحلة صعبةٌ جدًا على الشعب الفلسطينيّ وتحتاج إلى كثيرٍ من الثبات والعمل والمثابرة. ❑❑

عصافيرٌ مَشْوِية

امين يونس
العراق

❑ مُشكلة السمنة والكروش الكبيرة مُنفشِية في أقليم كردستان العراق، ومن نافلة القَول ان الوزن الزائد وتراكُم الدهون يُؤدي الى الإصابة بالأمراض الخطيرة، وأيضاً الى الكسل وقِلة الحركة ومن ثُم شحة البَرَكة.

طبعاً حكومتنا العتيدة ، ساهرة على راحة الشعب ومُراقبة أحواله عن كَثَب ... وبعد التمحيص والتفتيش، وَجدَتْ أن من أهم أسباب بدانة المواطنين هو تناولهم للخبز والصمون في الوجبات الثلاثة وبكمياتٍ مُعتَبَرة ... ولم تنفع حملات التوعية والتثقيف في وسائل الإعلام والندوات، في دفع المواطنين الى التقليل من شراهتهم في إستهلاك الخبز والصمون.

ولهذا جمعَتْ الحكومة مُستشاريها الأكفاء لغرض إيجاد سُبل فعالة لترشيق المواطنين غصباً عنهم "إذ ان هذا الأسلوب أي الغَصْب، أثبتَ فعاليته في السنوات الأخيرة من خلال تطبيق [الإدخار الإجباري] بإستقطاع جزء مهم من الرواتب" طيلة أعوام ... وبناءً عليه، فلقد إتفق المستشارون الجهابذة على إقتراحٍ فريد، لا يحل مشكلة الكروش وإستهلاك الصمون فقط، بل يُعالج حزمة من الأزمات الأخرى في طريقه!. وتتلخص الخطة في رفع سعر الطحين والوقود والكهرباء، مما سيجبر أصحاب الأفران على الإعتراض والشكوى، ولن تستمع الحكومة الى نداءاتهم ومطالبهم عمداً، مما سيدفعهم دفعاً أي أصحاب الأفران، الى تقليل وزن وحجم الخبز والصمون، ولن تقوم الجهات الرقابية المُكلفة بمتابعة عمل الأفران بمحاسبتهم "عمداً" أيضاً.

وبهذا الطريقة الفَذّة، فأن الحكومة وبجهود مُستشاريها، لم تكتَفِ بضرب عصفورَين بحجرٍ واحد، بل عدة عصافير!: العصفور الأول / إجبار المواطن على التقليل من الأكل، فأنا مَثلاً متعود على تناول أربعة صمونات يومياً، والآن فأن وزن وحجم هذه الصمونات يُعادل ثلاثة صمونات في السابق، وإذا إستمر الأمر على هذا المنوال لفترة معقولة فسأفقد رُبع وزني بإذن الله!. العصفور الثاني / رفع سعر الطحين يُفرِح الأعزاء أصحاب المطاحن والتُجار. العصفور الثالث / رفع سعر النفط والكازأويل يُساعد الأخوة أصحاب المصافي وأحباءنا التُجار. العصفور الرابع / رفع سعر الكهرباء يُسعِد السادة أصحاب المولدات ويُضحِك تُجار المقاييس "الذكية" على ذقون المُستهلكين "الأغبياء"!.

وحيثُ ان هنالك الكثير من العصافير المُتساقِطة بأحجار الحكومة ومُستشاريها، فمن المُفيد ان يقوم مُستثمرٌ بفتح مطعمٍ للعصافير المشوية ❑❑

تأثير مفهوم الجذمور والتفكير البدوي

نجاة تميم
العراق

❑ تجعل الرواية ولوجَنا إلى عوالم أخرى سهلا، دون حواجز أو عراقيل. يمكننا من خلالها أن نكون شهود عيان على حيوات متعددة، تارة غريبة عنا وتارة شبيهة لنا. الروائي أو الروائية عبارة عن حكواتي، ينسج حكايات، تبدو لأول وهلة أنها متفرقة، لا تمتّ لبعضها البعض بشيء. وكل حكاية تشكل لوحدها حلقة كاملة، لكن كل هذه الحكايات، في الواقع، ليست منفصلة، وإنما هي متداخلة بعضها ببعض داخل حلقة كبيرة. هكذا تشبّه الكاتبة والروائية التركية إليف شفق، في أحد محاضراتها باللغة الإنجليزية، على منصة Ted Talks، فترات حياتها التي تبرزُ على شكل دوائر عديدة تلمّها دائرة كبيرة. كانت بدايتها في فرنسا، حيث ولدت في ستراسبورغ عام 1971. ثم عاشت فترة المراهقة في اسبانيا. فبعد انفصال والديها عادت مع والدتها إلى أنقرا، ليعيشا مع الجدة من جهة والدتها.

كانت أنقرا سبعينيات القرن الماضي ذكورية بعائلاتها الكبيرة العدد. فكيف لأسرة من ثلاثة أفراد نسائية أن تعيش بينهم؛ طفلة وأمها شابة متعلمة ومنفتحة لكنها مطلقة وجدّة، امرأة تقليدية تؤمن بالمعتقدات. لكنها، مع هذا، رفضت تزويج ابنتها وشجّعتها لإكمال دراستها الجامعية التي جعلتها، بعدئذ، تعمل بالسلك الديبلوماسي.

هذا من أحد الأسباب التي سمحت لإليف شفق، وشفق هو اسم والدتها، أن تتنقل بين دول عديدة في العالم. و تشبّه، بذلك، نفسها بالرحالة أو البدوية التي هي في ترحال مستمر، حاملة حقائبها المليئة خيالا وذكريات، حنينا وغضبا، فرحا وخيبة أمل. وهي الكاتبة الأكثر مبيعا في تركيا، تكتب باللغتين التركية والإنجليزية، وتُرجِمت أعمالها إلى خمسين لغة، ومن أبرز رواياتها "قواعد العشق الأربعون"، "حليب أسود"، "أنا وسيدي"، فضلاً عن "لقيطة إسطنبول" و"الصوفي" وغيرها."

فما شدّ انتباهي هو بناء تقديمها للمحاضرة التي تحدثت فيها شفق عن فترات حياتها وأيضا عن نظرتها إلى مهنة الكتابة. فهي تعتبر أن كل فترة من حياتها تشكل دائرة تغادرها لكي تشغل دائرة أخرى في مكان آخر أو ربما في نفس الفضاء. فالبقاء في نفس الدائرة يجعل المرء يجف ثم يموت، حسب قولها. كلنا نفضل أن ننتمي إلى مجموعة معينة أو مجموعات، لأن ذلك يوفر الأمان والحماية والاعتراف الذاتي. لكن سلبية هذا الانتماء لدائرة مغلقة تحدّ من التنمية الذاتية والانفتاح على الآخر. لذلك تعتبر نفسها رحالة، تبني مفاهيمها على أفق متحرك وتعيد بناءه باستمرار. فالتغيير في المضمون يتطلب، أيضا، تغييرا في الأسلوب.

فطريقة تفكير شفق تحيل على مفهوم التفكير البدوي الجذموري للثنائي الفرنسي الشهير جيل دولوز والمحلل النفسي فيليكس غتاري في كتابهما تحت عنوان "ألف هضبة" (1976). فإنهما يؤمنان بفكرة نظام يتضمن مجموعة من المفاهيم المرتبطة في ما بينها ارتباطا ضروريا ويكون هذا النظام مفتوحا. فالفكر بدون صورة، حسب قولهما، هو ما يعرف الآن بالتفكير البدوي أو البداوة في التفكير. لأن البدوي لا ينشأ عمارات فلسفية ثابتة، بل هو في ترحال مستمر.

الترحال أو البداوة ليست مجرد وسيلة للتنقل الجسدي. فحسب القراءة التي قام بها دولوز لنيتشه، فهي شكل من أشكال التفكير الذي يتبع خط الهروب والذي لا يسمح بالسقوط في شباك القوى المؤسساتية. وهذا يعود إلى التفكير الفني البدوي، في القرن التاسع عشر، الذي يغرف من منبع استقلال عالم الفن وتكوين شخصية الفرد الذي يعمل على إبراز فردانيته وهويته الإبداعية.

أما الجذمور، في علم النبات، فهو عبارة عن نباتات واسعة الانتشار، تنبثق من الأرض وتمتد فوق منطقة واسعة. تبدو وكأنها منفصلة، لكنها مترابطة تحت الأرض، تنمو أفقيا وموازية لسطح التربة، يستعملها النبات للانتشار وتكوين نباتات جديدة تطلق جذورا وسوقا عند العقد الساقية. حسب دولوز وغتاري، تكتسب هذه النبتة دلالات فلسفية متميزة.

فمفهوم الجذمور باللاتينية rhizome يقوم على ستة مبادئ:
مبدأ الترابط والتنافر، التعددية، القطيعة الغير دالة ومبدأ الخريطة.

أما التفكير البدوي الجذموري، فيعتمد على افق منفتحة وعلى عدم ثباته على تعريف مفهوم معين؛ بحيث يبقى هذا المفهوم الفلسفي عرضة للتغيير والحذف والاضافة المستمرة.

وهذا ما تدعو له شفق في كتاباتها ومحاضراتها. ففي روايتها الأخيرة، باللغة الإنجليزية، المعنونة "10 دقائق و38 ثانية في هذا العالم الغريب"، تطرح حيوات اجتماعية متعددة، متنافرة وفي الوقت نفسه، مترابطة لتعدد هوياتها وانتماءاتها. تهرب من وسط لا يؤكد ذاتها فترسم لنفسها خريطة طريق؛ تجهل توقعات موطنها الجديد.

البنية النصية

تُهدي الكاتبة روايتها، التي تتكون من ثلاثة أجزاء معنونة؛ العقل ،الجسد والروح، "لنساء إسطنبول، ولمدينة إسطنبول التي كانت ولا تزال مدينة أنثى"، أو بالأحرى تتمناها أن تكون أنثى.

في الجزء الأول، اضطرت الراوية العليمة / شفق أن تعرضَ، في عشر دقائق وثمان وثلاثين ثانية، صيرورة مكثفة لحياة ليلى "التيكلا" التي اشتهرت بهذا الإسم بين زبنائها وأصدقائها. فبدأت بنهاية الحكاية؛ حيث وُجدت ليلى كاملة عفيفة، المولودة يوم 6 كانون الثاني عام 1947 بمدينة فان، مقتولة ومرمية في حاوية نفايات معدنية في اسطنبول وحذاؤها الأرجواني ما يزال في قدميها، يوم 29 تشرين الثاني عام 1990. كانت رابع عاملة جنس تُقتل خلال شهر حسب التلفاز الوطني. صادف خبر مقتلها تقرير الأمم المتحدة للتدخل العسكري في العراق واستقالة السيدة الحديدية في بريطانيا والتوتر بين تركيا واليونان وإعادة توحيد فريقي كرة القدم في الألمانيتين الغربية والشرقية وإلغاء الشرط الدستوري الذي يفرض على المرأة التركية المتزوجة الحصول على موافقة الزوج للعمل خارج البيت وحظر التدخين على الرحلات الجوية التركية.

لقد توقف قلب ليلى التيكلا عن الخفقان، لكن دماغها ما زال يقاوم حتى النهاية ولمدة عشر دقائق وثمان وثلاثين ثانية أخرى؛ حسب تشخيص سابق لأطباء العناية المركزة في كندا.

وخلال هذه المدة القصيرة ستستعرض ليلى التيكلا ذكرياتها، دقيقة تلو الدقيقة، من خلال مذاق ونكهات أطعمة سبق أن تناولتها تماما كما حدث مع الكاتب الفرنسي مارسيل بروست / الراوي عند تناوله كيكة المادلين في روايته "البحث عن الزمن المفقود".

ففي أول دقيقة التي توقف قلبها عن الخفقان ومازالت الخلايا العصبية نشيطة تربط بعضها ببعض وتمدها بطاقة أخيرة، كانت أول ذكرى مرّت بعقلها هي ذكرى الملح الذي غُطست فيه إبان ولادتها لامتناعها عن إصدار الصرخة الأولى. ولدت ليلى في عائلة أكارسو في مدينة فان التركية. تزوج أبوها هارون من والدتها، بينّاز، وهي في السادسة عشرة زواجا غير رسميا. بينّاز التي بقوا يعيّرونها بالفقر، هي ضرة الزوجة الأولى سوزان العاقر. هذه الأخيرة التي أصبحت أمّا لليلي وبينّاز، أمها البيلوجية، عمّتها.

دقيقتان:

بعد توقف قلبها بدقيقتين، تذكرعقلها مذاقين متناقضين؛ الليمون والسكر. ففي حزيران عام 1953، رأت نفسها طفلة في السادسة من عمرها، في بيتهم الكبير، بمدينة فان، بجدرانه المزينة بجداريات فنية الذي ينمّ عن تاريخ عريق. لقد سكن هذا البيت، قبل الحرب العالمية الأولى،

طبيب أرميني مع زوجته وبناته الستة اللواتي كنّ يعشقْن الموسيقى والغناء. لكن هذه العائلة خرجت ولم تعد وتركت ورائها ممتلكاتها الثمينة. وحصل والد هارون، محمود (الأغا الكردي) المتنفذ على هذا البيت لقاء دوره في تهجير الأرمن من هذه المنطقة، اللذين أرسلوا في جماعات إلى صحراء دير الزور، حيث لم ينج منهم إلا القليل. اكتشفت ليلى أن الأمور ليست كما تبدو عليه؛ يوجد طعم مرّ تحت الطعم الحلو.

ثلاث دقائق:

بعد توقف قلب ليلى التيكلا بثلاث دقائق، تذكرت القهوة المنكهة بالهيل؛ قهوة مركزة ارتبط مذاقها في عقلها بشارع المواخير في إسطنبول. كان ذلك في شهر أيلول عام 1967، تذكرت ليلى شارعا مسدودا بجوار المرفأ، الممتد بين صفوف المواخير المرخصة. وفي الجوار، توجد مدرسة أرمينية وكنيسة يونانية وهيكل لليهود الشرقيين وتكية للصوفيين وأبرشية للروس الأرثوذكس.

وهذا كله ينتمي إلى الماضي الذي أسسه السلطان عبد العزيز في القرن التاسع عشر. كانت ليلى آنذاك في السابعة عشرة من عمرها، حين باعها زوجان منغمسان في الدعارة إلى أول ماخور، ولم يكن في حوزتها إلا خمس ليرات وعشرين قرشا. وذلك حدث قبل ثلاث سنوات. لكنها تعتبر ذاكرتها مقبرة للماضي، دفنت بها مقاطع من حياتها. ففي هذه السنة، تعرفت ليلى على نالان في الزنزانة، وهي من عائلة ثرية من الفلاحين ومربي المواشي في منطقة وسط الأناضول. جاءت إلى إسطنبول لكي تصحح الخطأ السافر الذي اقترفته الطبيعة. أسمتها ليلى نوستالجيا. وكانت نالان تدعى عثمان. هرب في ليلة زفافه إلى إسطنبول. وهي أحد أصدقائها الخمسة.

أربع دقائق

إن رائحة البطيخ ومذاقه أعادها إلى صيف أب 1953 ورحلة عائلة أكارسو إلى بلدة معروفة بصيد الأسماك على الساحل الجنوبي. هناك بدأت ليلى تعيش كابوس الاعتداءات الجنسية من قبل عمّها وعمرها لا يتجاوز ست سنوات واستمر ذلك خلال زياراته للعائلة.

كان صديقها الوحيد في هذه القرية، "والشجرة التي تقدم لها الحماية والملاذ" بالرغم أنه يعاني أيضا من التنمر، سنان، ابن صيدلية القرية. وهو أيضا أحد أصدقائها الخمسة. كان أبوه الذي توفي في الحرب. يعتبر "أن سكان القرية أناس مسحوقين تحت وطأة الدين والمعتقدات الصارمة". وكان يؤكد "أن المرء لا يستطيع تغيير الجغرافيا، إلى أنه في وسعه أن يحتال على القدر".

خمس دقائق

بعد مرور خمس دقائق على توقف قلبها عن الخفقان، كانت ذكرى ولادة شقيقها تاركان مقرونة برائحة يخنة الماعز المتبل بالبهار ومذاق الكمون والثوم والبصل. ازداد تاركان بمتلازمة داون وكان ذلك بمثابة عقاب رباني للأب هارون. فامتنع هذا الأخيرعن شرب الخمر وخياطة فساتين النساء ومنع أسرته من سماع الراديو وتصفح مجلات الموضة ونجوم الفن.

في 13 نيسان عام 1963، صادف هذا العام أحداثا كثيرة، اطلعت عليها ليلى في الجريدة اليومية؛ اعتقال مارتن لوثر كنغ لاحتجاجه على سوء المعاملة. وفي الأخبار المحلية، اضراب فلاحي الأناضول بسبب الفقر والبطالة. حينها بلغت ليلى السادسة عشرة.

كان سنان ينقل أخبار الراديو ويمدّها بالمجلات، فعلمت بحصول المرأة الإيرانية على حقوقها السياسية وأن أمريكا خسرت الحرب في الفيتنام. كما أن سنان يعرف الكثير عن الحربين العالميتين الأولى والثانية. لذلك أسمته سابوتاج – تخريب. بالإضافة إلى ذلك، كانا يساندان بعضهما البعض كونهما يعانيان من التنمر خصوصا في المدرسة.

ست دقائق

بعد ست دقائق على توقف نبضات قلب ليلى عن الخفقان، مرّ في خاطرها ذكرى الموقد المشتعل ورائحة الخشب. كان ذلك يوم 2 حزيران عام 1963 وهو يوم زفاف ابن عمها. وأرعبها حزام الطوق الأحمر الذي يلف خصر العروس ويرمز إلى العفّة. فشعرت بصخرة على صدرها لأنها تعرف عقاب الفتاة الغير عذراء. هكذا بدأت ليلى تؤذي نفسها بأي شيء حاد للتكفير عن ذنبها. وكانت اعتداءات عمّها تتكرر كلما سنحت له الفرصة ويوهمها كل مرّة بأن القذارةَ موجودةٌ فيها. أما والدها فكان يعلّمها القرآن ويكرّر لها بأن الله يرى كل شيء، لكنها ترى أن الله لم يساعدها عندما تحتاجه.

سبع دقائق

إذ واصل عقل ليلى القتال، تذكّرت طعم التربة، الجاف والطباشيري والمرّ. فالطباشير ذكّرها بأطفال كانوا يطاردون رجلا عجوزا يزيديا، فرسموا حوله دائرة بالطباشير وتسمّرَ في مكانه. فهذه الدائرة هي أيضا تمثل شكل لعبة الهيلا هوب التي منعها والدها من اللعب بها كالعارضة الأمريكية التي رأتها في مجلة "الحياة". فكيف يمكن أن يصبح الطوق الدائري الذي عزل إنسانا، أوقعه في فخ، رمزا للحرية المطلقة ونعمة لإنسان آخر؟" فهذا التوق الذي يلف خصر الأمريكية يمثل لها الحرية، أما اليزيدي فكان ينتظر أحدا يمحو له خط الطباشير لكي يخرج من الدائرة.

أما التربة فقد كانت تلتهمها عندما عرفت أنها حامل من عمّها. وباحت بذلك لعمتها بيناز وهذه الأخيرة أخبرت أباها الذي لم يرد أن يصدق ذلك لكي يحمي أخاه. أما الطعم المرّ فقد اقترن باكتشافها حقيقة والدتها البيلوجية؛ وهي عمّتها بيناز.

ففي أيلول عام 1963، قرر الأب منع ليلى من الذهاب إلى المدرسة. وفي تشرين الثاني داهم المرض شقيقها تاركان وغادر الحياة. وفي عصر نفس اليوم تركت ليلى البيت. وعرفت أنها "لا تستطيع العودة، وأن هذا الموت البطيء الذي وجدت نفسها فيه أصبح هو نفسه الآن حياتها".

تعرفت على جميلة في المستشفى أثناء الفحص الطبي لعاملات الجنس وهي أول صديقة لها في إسطنبول "وهي أحد خمسة". ولدت جميلة في الصومال لأب مسلم وأم مسيحية توفيت باكرا. عند بلوغها السابعة عشرة، انضمت جميلة إلى اجتماع في الكنيسة. ولم يجد ذلك قبولا عند العائلة فأصبحت منبوذة. فخلال فترة حكم سياد بري، جاءت مع العديد من الافارقة إلى إسطنبول هربا من الحرب الأهلية والعنف الديني والعصيان السياسي.

ثماني دقائق

مرت ثماني دقائق وتمثلت الذكرى التالية، التي تركت أثرا على جسدها في آذار عام 1966، في رائحة حامض الكبريتيك، لقد حاول أحد الزبائن، المختل عقليا، أن يفرغ محتوى الزجاجة على وجهها. فأصاب، لحسن حظها، ظهرها.

لقد ازداد البؤس والعنف في المدينة، طوال فصل الربيع لعام 1966. واشتبكت الفصائل السياسية وقتُل الطلاب في الجامعات. لكن ثمة امرأة عربية واحدة كان يروق لليلى أن تقضي الوقت برفقتها، امرأة قامتها قصيرة إسمها زينب 122. وهي أحد خمسة؛ ولدت في قرية جبلية شمال لبنان. كانت تتمنى أن تكون رحالة وهي قارئة الفنجان في أوقات فراغها. ففي نيسان عام 1964، اشتغلت في صالون حلاقة في إسطنبول لساعات طوال لم يتحملْها جسمُها. فعرضت عليها سيدة العمل كمنظفة في الماخور.

تسع دقائق

تذكرت ليلى د/علي الطالب اليساري ومذاق حلوى الشكولاته المحشوة بالكراميل والكرز والبندق المطحون. ففي تموز عام 1968، كان الأسطول الأمريكي السادس في طريقه لكي يرسو على ضفاف البوسفور. لكن مظاهرات مناهضة للنظام أفشلت قدوم سفينة الناتو. كان من ضمنهم د\علي الذي هرب من الشرطة وآوته ليلى في الماخور. وأصبح يتردد عليها ويجالسها في غرفتها ويحكي لها عن والده العامل في مصنع فورد في كولونيا وعن روزا لوكسمبورغ التي اغتالها الجيش ورماها في ترعة. كما أنه كان يكلمها كأنها ندا له. فراقت لها هذه المساواة.

عشر دقائق

بمرور الوقت، استعاد عقل ليلى مذاق بلح البحر الأسود المقلي في زيت غامر. ففي تشرين عام 1973، اكتمل جسر البوسفور، بعد ثلاث سنوات من العمل. وهو رابع أطول الجسور في العالم. يلتقي البحر الاسود ببحر مرمرة من جهة في حين يجري بحر إيجه ليلتقي بالبحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى. وقد صادف احتفال التدشين الذكرى الخمسين لتأسيس جمهورية تركيا. في ذالك اليوم، زار د\علي ليلى وهو محمل بمنشورات ضد النظام وبلح البحر المقلي. لقد كاد أن توقفه الذئاب الرمادية - الفاشيون المسيطرون على المنطقة. ففي تلك الفترة، تعرفت ليلى على حميراء بالصدفة عندما وجدتا، على الطريق، قِطّا أسودا مُصابا وقرّرتا أخذه إلى بيطري لعلاجه. فحميراء أحد خمسة، ولدت حميراء في ماردين، على مقربة من دير القديس غابرييل في سوريا وهو اقدم دير في العالم للسريان الأرثوذكس. أُرغمت على الزواج وهي في السادسة عشرة من صديق والدها في التجارة والذي كان يعنفها فهربت إلى اسطنبول وكانت خائفة أن تقع ضحية غسل العار. لقد كانت تعمل مغنية في كازينو على رصيف الميناء.

عشر دقائق وعشرون ثانية

في الثواني العشرة الأخيرة التي سبقت توقف دماغ ليلى عن العمل توقّفا تامّا، تذكّرت قالبَ حلوى زفافها مع د\علي وتركها للمهنة واستأجراهما، في شارع هيري كافكا، شقة رقم 7 في الطابق العلوي. لكن فرحتها لم تدم طويلا؛ لأن د\علي قُتل أثناء مظاهرات الأول من أيار، في ساحة التقسيم، من قبل أحد القناصين عام 1977.

عشر دقائق وثلاثون ثانية

قبل أن يستسلم دماغ ليلى التكيلا نهائيا، تذكرت مذاق الويسكي بالشعير، وكان آخر طعم بين شفتيها قبل وفاتها. ففي تشرين الثاني عام 1990، بينما كانت ليلى وصديقتها جميلة في البيت رنّ الهاتف. كانت مديرتها السابقة في الماخور تطلب منها خدمة؛ أن تلتقي إبن باشا وتقنعه بالزواج من فتاة اختارها له والده. يبدو أن للشاب المُثلي عشيق منذ زمن طويل. وافقت بصعوبة. فذهبت للقاء الشاب في فندق الإنتركونتنتال لكي تعلّمه قواعدَ الإغراء قبل ليلة الزفاف ربما يتماثل للشفاء، حسب والده الباشا المتدين والمحافظ جدا. وخلال حديثها معه تفهّمته وغادرت المكان. وهي في طريقها إلى بيتها، اعترضتها سيارة مرسيدس وعرضوا عليها الركوب لتشاركهم عيد ميلاد صديق وأغروها بمبلغ كبير، كانت هي فعلا في حاجة إليه لعلاج صديقتها جميلة التي تعاني من مرض الذئبة. ففي الطريق، انقبض قلبها. لكن فات الآوان.

الثواني الثماني الباقية

كان آخر ما تذكرته ليلى هو مذاق قالب الحلوى بالفراولة في السادس من كانون الثاني الذي أعدّته بنفسها. لقد أقام، بمناسبة عيد ميلادها، أصدقاؤها الخمسة، سنان المُخرب، صديق الطفولة والذي لحق بها في اسطنبول، نوستالجيا نالان المتحوّلة جنسيا، جميلة، زينب 122 وحميراء المغنية حفلة لها.

لقد كانت تظن أن العدد خمسة مميز؛ فالتوراة تتألف من خمس كتب وأركان الإسلام خمسة وفي البوذية خمسة طرق، في حين أن شيفا كشف عن خمسة وجوه تنظر إلى خمسة اتجاهات مختلفة، وأما الفلسفة الصينية فتدور حول خمسة عناصر؛ الماء والنار والخشب والمعدن والأرض. وهناك خمسة مذاقات متعارف عليها؛ الحلو والمالح والحامض والمر والأومامي (طعم الغلوتامات). كما يعتمد إدراك البشر على خمس حواس؛ السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

هكذا حاول العقل تكثيف حياة برمّتها في وقت يستغرق غليان ماء في إبريق. أما في الجزء الثاني "الجسد"، فسنرى الأصدقاء الخمسة الذين يريدون انتشال جثة صديقتهم ليلى، التي رفض أهلها إستلامها، من مقبرة "كيروس" للمنسيين والغرباء والمنبوذين واللاجئين والمهمّشين، وذلك لكي يردّوا الاعتبارَ للجسد ويمنحوه قبرا وليس رقما مجهولا؛ ولأنسنة المجرّد من الانسانية. فبعد أن نُبذت ليلى من جهة قرابة الدم فقد وجدت في أصدقائها قرابة الماء. لقد كانوا "ضعافا منفردين، ولكن أقوى في اجتماعهم".

أما في الجزء الأخير المعنون "الروح"، فقد نجح الأصدقاء الخمسة في إيجاد قبر الجثة وانتشالها رغم ملاحقة الشرطة لهم. فلقد غامروا وألقوا بالجثة في آخر لحظة في مضيق البوسفور كما كانت ليلى تتمنى أن تعيش سمكةً في كونٍ غنيّ بالألوان الطبيعية. وقد شاهدت كنوزا ضائعة وهياكل صدئة لمراكب غارقة ومحضيّات دُفعن بهنّ دفعا من نوافذ القصر وهنّ داخل أكياس تماما كما نقرأ في قصائد "الشرقيات"(1829) للكاتب الفرنسي فيكتور هوجو. لكن ليلى أضحت سعيدة لكونها أصبحت جزءا من هذا الملكوت النابض بالحياة والبرّاق مثل ولادة شعلة جديدة.

لقد "صارت حرّة أخيرا" ❑❑

القناص الأحول

منصور الريكان
العراق

❑ في مقهى التجذيرْ
للإيرادِ والتصديرْ
وأنا ملتذٌّ بالشايْ ....
وكديكٍ منفوشِ الريشْ
وأمامَ صديقي القصاصْ
إذ وشوشنيْ :
هل ترغبُ يا صاحَ المتعب بنشرِ قصيدةْ
بصحيفة حزبٍ مشهورْ
ولكوني شاعرُ مذبوحْ
من جيلِ الدمعةِ والنوحْ
وأكرهُ بعضَ إذاعاتٍ للدسّ أو للبوحْ
والمخفيّ للمقبورِ والمسموحْ
والصحفِ الظاهرةِ الحرةِ والمأجورةْ
وأخافُ منْ (ت في - أي أمْ أنْ)
ولسانيَ قدْ يفلتُ منّي .... يتأينْ
ويعجُّ برجرجةِ المخْ
لبقايا أدمغةٍ تعبى أو منخورةْ
بادرني الصحفيُ الأحولُ كالقناصْ
آسفْ ...
بادرَ صاحبيَ القفاصْ ....
ودسَّ بجيبهِ نصفَ ورقةْ
ومن الجعبةِ أظهرتُ ما لذَّ وراقْ
من الأوراقْ
بعضٌ قد يفهمُها العاقْ
وبعضٌ يفهمُها العشاقْ
وبعضٌ لا تفهمْ وتطاقْ
وبعدَ عذابْ
دسستُ (ضبابْ)
قصيدةُ عمريْ
تحكي عنْ صبرٍ لكتابْ
وخفايا ذئبٍ مسعورٍ وكلابْ
حدّقها مرتعباً منّيْ
بوصّيةِ مدسوسٍ ناثرْ
ولكونيَ أكتبُ تفعيلةْ
وجيلي ليسَ كجيلةْ
وقصيدتيَ فالتةٌ جداً
برتوشٍ تلتفُّ طويلةْ
لا تحملها أعتى أذناب الصفحاتْ
تحتاجُ بلابلَ قدْ تبكي
ومواويلَ من (نوتاتٍ) أو آهاتْ
ولكونَ الصحفيُ الأحولْ
مشغولاً بالهزّ وكنسِ مقالاتِ نصف الأدباءْ
والعهدة كما قال الراويْ
يشربُ نثرْ ..... ويأكلُ نشرْ
ويشبهُ (واويْ)
ولأنهُ فوجئَ من قبليْ
ولكيْ لا يظهرَ إحراجاً
أشعلَ (سيكاراً) مغشوشاً
بغلافٍ من صنعِ أمريكا
حدقَّ بيْ ...
من خلفَ زجاجاتٍ عوجْ
إذْ أحرجنيْ
أو جرجرنيْ بالمنلوجْ
قالَ :
صحيفتُنا رائعةٌ بالبترِ وحتى النثرْ
وتمثلُ مجموعَ الشعبْ
ولكيْ لا نقلقْ أرنبةً حتّى كلبْ
ونداهنُ أنصافَ الشعرِ والقفاصةْ
ورواةَ الدجلِ القناصةْ
بعضٌ منهمْ رجعيونَ وبعضٌ ساسةْ
ونُطلي الصفحةَ بالملكِ الأولِ (لعلوجْ)
وصحيفتنا لا تتفشى (بطويريجَ والغماسةْ)
ولأني المسؤولُ الأدبيْ
للفرفشةِ حتى الكذبِ
ورئيسُ التحريرِ لطيفٌ من تكساسَ
ورماني بقصيدةِ عمريْ
وأمامَ صديقي الرقّاصْ
وسكرتُ بأقداحِ الشايْ
وبلعتُ المقهى والشارعْ
وتقيأتُ بعضَ صحافةْ ❑❑

كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم

عبد الرزاق دحنون
سورية

❑ نُقل عن المأمون: ما أعياني جواب أحد مثل ما أعياني جواب رجل من أهل الكوفة، قدَّمه أهلها فشكا عاملهم، فقلت: كذبت، بل هو رجل عادل، فقال: صدق أمير المؤمنين وكذبت أنا، قد خصصتنا به في هذه البلدة دون باقي البلاد خذه واستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإنصافه مثل الذي شملنا، فقلت: قم في غير حفظ الله، عزلته عنكم.

كان المأمون بن هارون الرشيد يجلس للناس يوم الثلاثاء من كل أسبوع, فجاء رجل قد شمر ثوبه، وتأبط نعله، فوقف على طرف البساط وقال: السلام عليكم، فردَّ المأمون السلام، فقال الرجل: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه، جلسته بإجماع الأمة أم بالغلبة والقهر؟ قال: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يتولى أمر المسلمين من عقد لي ولأخي، فلما صار الأمر إليَّ علمت أني محتاج إلى إجماع كلمة المسلمين في المشرق والمغرب على الرضا بي، ورأيت أني متى خليت الأمر اضطرب حبل الخلق، ومرج أمرهم, وتنازعوا، وانقطعت السبل، فقمت حياطة للخلق إلى أن يجمعوا على رجل يرضون به فأسلم إليه الأمر، فمتى اتفقوا على رجل خرجت له من الأمر. فقال صاحب النعل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وذهب.

رجل من عامة الخلق يقتحم مجلس من دانت له الدنيا من مشرق الأرض لمغربها، يقف على بساط الخليفة، متأبطاً نعله، يسأله من أعطاه الحق في مجلسه؟ هذا لعمري الخط الفاصل بين الحياة والموت، والذي ينبغي ألا يتجاوزه أحد أو حتى الاقتراب منه. ولكن في هذه النادرة يظهر أن العلاقة لم تكن دوماً مشدودة شداً حاداً بين السلطان وعامة الخلق، فقد كان هناك مساحات ممتدة متنوعة بينهما تثير الانتباه والدهشة. بل لعلها تتجاوز وتخترق بصورة مباغتة الخطوط الحمراء للسلطة دون أن يترتب على ذلك أي نتائج مأساوية، وإنما يتحول الموقف برمته لنادرة طريفة تنسج خطاباً مراوغاً يضمر السخرية العميقة من صاحب السلطان على حدّ تعبير الدكتورة هالة أحمد فؤاد.

وهنا لا بد من استنطاق هذه العلاقة الشائكة بين الرجلين. صاحب النعل ترك عمله، شمَّر ثوبه، تأبط نعله، وجاء مجلس السلطان يسأل. أيدرك هذا الرجل ما يفعل؟ أهو أحمق بالفطرة أم أنه يخلط بين الهزل والجد؟ ألا يدرك ما يمكن أن يفعله السلطان لو غضب؟ وغضب السلطان لا تحمد عُقباه. أمن حقه كفرد مؤمن أن يستنطق السلطان ويسأله كيف يدير شؤون البلاد والعباد؟ ماهي الأسباب الملحة التي أقلقته ودفعته لمواجهة السلطان بهذه الجرأة المنفلتة من عقالها، هذا هو التهور بعينه، دخول حضرته هكذا دون أذن ولا دستور؟

هي في مجملها أسباب تكشف عن احتياج الرعية الملح إلى الراعي، ولا تهدد جوهر السلطان، بل تدعمه، وتؤكده، وتكرس له. أنظر إلى صاحب النعل حين سمع جواب المأمون كيف سلم وانصرف. هل سكنت نفسه واطمأنت من قلقها على مصير الأمة؟ أكان جواب المأمون شافياً كافياً، سد الذائع من كل وجه؟

ولا يعنينا في هذا الساق مدى صحة الرواية، وهل هي حقيقة أم من عمل الخيال؟ لأننا نهتم بتحليل تلك العلاقة الملتبسة بين السلطان ورعيته، ولعل ما ينسج ملامح ذلك الالتباس هو أمكانية التشارك في دوافع الاقتراب من المدار السلطوي لاذع المذاق، والتورط في فضاءاته، مما يجعل الحضور داخل هذه الفضاءات مجازفة خطرة قد يترتب عليها في كثير من الأحيان نتائج وخيمة تصل إلى حد التصفية الفعلية مادياً ومعنوياً.

وصدر هذا الكلام شبيه بشيء لا بأس بروايته في هذا الموضع، فقد خطب أبو جعفر المنصور يوماً فقال: منذ أن وليت عليكم رفع الله عنكم الطاعون. فقام رجل في المجلس وقال: لأن الله أكرم من أن يجمع علينا المنصور والطاعون. وألحَّ الذباب يوماً عليه في مجلسه حتى أضجره. فقال لحاجبه: انظر من في الباب من العلماء. فقال: مُقاتل بن سليمان. فأُدخل على المنصور، فسأله: لماذا خلق الله الذباب؟ وعاين مُقاتل تبرم المنصور وضجره، فأجابه: لكي يُذلّ به الجبابرة.

تُقدّم لنا هذه المشاهد العامة أو الخلق أو-الرعاع-إن شئت ذلك، بوصفها حشداً قادراً على الفعل، وهذا أحد تجليات المقاومة بالحيلة في مواجهة عسف السلطان وفرديته كما أكد عليه جيمس سكوت في كتابه الخطير "المقاومة بالحيلة" وعنوانه الفرعي: "كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم" ❑❑

هل هي نهاية الكتاب المطبوع؟

د. مصعب عزاوي
فلسطين

❑ في سيرورة نهوض البشر كجنس حيواني، والتي امتدت على سبعة ملايين من السنين، كان تناقل البشر للمعرفة التراكمية فيما بينهم محدوداً بشروط ومحددات عدم وجود أي إناء حاضن لتوثيق المعرفة يوسع من إمكانيات مرور المعرفة بين الأجيال ليتجاوز حاجز التناقل الشفهي، والذي كان في أحسن الأحوال ممكن التراكم على شكل نمط ما من «الثقافة الجمعية» لمجتمع ما كان محدوداً لناحية عدد أفراده خلال جل رحلة تطور بني البشر بيولوجياً واجتماعياً، في نسق كانت فيه المعرفة العابرة للمجتمعات قناة غير متاحة لحين اكتشاف البشر لعملية توثيق أفكارهم كتابياً، وهو ما كان في بادئ الأمر بشكل مصور في الحضارة الفرعونية في مصر منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد على الجدران و صحف البردي بشكل بيّن وواضح، وفي بلاد الرافدين مع السومريين بشكل مقطعي تصويتي على طريقة الكتابة المسمارية على الرقم الطينية في نفس الحقبة الزمنية تقريباً، وهي الطريقة التي تم تطويرها لاحقاً من قبل الفينيقيين في شمال بلاد الشام في خواتيم الألف الثاني قبل الميلاد لتصبح أول أبجدية مكونة من حروف يمكن الكتابة بها بشكل لا يختلف كثيراً عن النهج الذي يكتب به كل أبناء البشرية راهناً.

وفي الحقيقة فإن الكتابة اتخذت أشكالاً متعددة منذ اكتشافها تنوع حسبما هو متاح في بيئة كل مجتمع قام بتبني الكتابة، فكانت على الرقع الطينية المصنوعة من الصلصال في وادي الرافدين وبلاد الشام، وكانت على الجدران وعلى صحائف البردي في وادي النيل، وهو ما تم تطويره لاحقاً في الصين حوالي القرن الثاني قبل الميلاد ليصبح كتابة على ما يشبه الورق الذي نعرفه راهناً، وهو الاكتشاف الذي استقاه منهم العرب ووسعوه ليصبح المادة الخام الأولى لصناعة «الوراقين والنساخين» الذين كان عملهم يتركز أساساً حول إنتاج نسخ متعددة مكتوبة بخط اليد عن كتاب أو مؤلف ما، وهو العمل الذي ظل مزدهراً حتى منتصف القرن الخامس عشر، إلى حين زلزلته باكتشاف الألماني يوهانس غوتنبرغ في العام 1440 لأول آلة طباعة ميكانيكية اختصرت الوقت المهول الذي كان يحتاجه النساخون لاستنساخ كتاب بخط اليد، مفضياً إلى إمكانية طباعة أعداد أكبر بكثير من أي كتاب وبوقت أقل، وهي التقنية التي تم تطويرها والبناء عليها وظلت مستخدمة على المستوى الكوني حتى خواتيم القرن العشرين حينما تم استبدالها بتقنيات الطباعة الرقمية المستندة إلى قدرات وإمكانيات البرامج الحاسوبية للقيام بما كان يفعله خبراء صف حروف الطباعة على ماكينات الطباعة التقليدية السالفة لها.

وعلى الرغم من ثورية وتأثير الكتاب المطبوع في حيوات بني البشر المعاصرة، والذي تمحور حول جعل المعرفة التراكمية لبني البشر موثقة وميسرة للحصول عليها واستبطانها، والبناء عليها، بما يوفر على المتعلم عناء تعلم تلك المعارف عن طريق التجربة والخطأ والصواب، أو التعلم الشفاهي، والذي قد لا تكفي حياة الإنسان كلها بتلك الطريقة لتعلم ما هو موثق في كتاب واحد في أي من فروع العلوم المعاصرة؛ فإن عمر علاقة بني البشر بالكتاب المطبوع والتي لما تتجاوز القرون الستة لا تمثل إلا رفة جفن في رحلة تطور بني البشر الطويلة، والتي امتدت على سبعة ملايين من السنين، وهو ما يعني بأنه لم ينقض وقت زمني كان لحدوث اصطفاء طبيعي يغربل بني البشر انتقائياً لصالح بقاء أفضل لأولئك الأكثر قدرة على التعامل الفاعل مع الكتاب المطبوع والاستفادة منه بشكل أكثر كفاءة من أقرانهم، وهو ما يعني من الناحية العصبية الدماغية، بأن أدمغة بني البشر لا تنطوي على جزء خاص فيها مخصص للقراءة والكتابة بشكل حصري، وأن تينك المهتمين يتم تجيرهما في الدماغ لمناطق دماغية متعددة يطلب من كل منها القيام بمهمات تكميلية إضافية تتضمن تعلم القراءة والكتابة بالشكل المعهود الذي يقوم به بنو البشر راهناً.

وبشكل أكثر تدقيقاً فإن دماغ بني البشر يتعامل تقريباً بنهجين مختلفين حينما يطلب من الدماغ البشري لإنسان معاصر القيام بقراءة نفس النص من كتاب ورقي، أو من كتاب إلكتروني على جهاز رقمي.

ففي حالة الكتاب الورقي يقوم الدماغ بالاتكاء على وظائف الإدراك الاستبطاني الاستيعابي في الفص الجداري، والذاكرة في منطقة الدماغ المتوسط وخاصة منطقة الحصين؛ بينما في حالة الكتاب الإلكتروني فإن التفعيل يكون لمناطق أخرى في الدماغ بشكل يتركز أساساً في منطقة الفص الجبهي المختص بالتحليل العقلي النقدي والغريلة، وهي المنطقة المسؤولة عن ترشيد سلوك بني البشر وتعقلهم وتفكرهم في أي سلوك يقومون به لكي لا يصبح سلوكهم ارتكاسياً مرتكزاً إلى التفاعلات العاطفية في منطقة ما تحت الوطاء، والتي تعمل عند بني البشر بشكل لا يختلف كثيراً من الناحية الفيزيولوجية عما تعمل به عند الحيوانات الأخرى في مملكة الحيوانات الفقارية.

وهناك منطقة تشريحية أخرى يتم تفعيلها أيضاً عند قراءة كتاب بشكل إلكتروني وهي منطقة اللوزة الدماغية المسؤولة عن مشاعر الخوف والوجل والقلق. وذلك التوصيف البيولوجي الأخير يعني بشكل مبسط بأن الاستبطان والتفهم والاستيعاب والاستذكار هي العمليات الأكثر حضوراً عند قراءة كتاب مطبوع ورقياً، بينما عمليات الغربلة وفرز الغث عن السمين، والتحليل النقدي، والتوجس من احتمال أن يكون ما يقرأه الشخص مختالاً وموارباً أو كاذباً بشكل كامل. وهو ما يعني بأن قراءة كتاب بشكل إلكتروني هي أكثر إرهاقاً واستنزافاً للموارد البيولوجية والطاقية المحدودة في الدماغ، وخاصة في منطقة القشرة الدماغية ما قبل الجبهية، والتي تمثل المركز الذي يميز بني البشر دماغياً عن باقي الحيوانات الأخرى، والذي لا بد لهم من استخدام قدراته في كل حركاتهم وسكناتهم لضمان اتساقهم مع مجتمعهم ومحيطهم البيئي والحيوي حديثاً وسلوكاً وعملاً، وهو ما يعني أن قراءة النص الإلكتروني لا بد أن تزيد من الطلب البيولوجي على تلك المنطقة الدماغية التي ليس هناك من مهرب من تشغيلها الدائم وبطاقتها القصوى عند أي إنسان طبيعي متكيف مع متطلبات الحياة المعاصرة، والذي يعني أيضاً زيادة في إرهاق وإنهاك تلك المنطقة الدماغية، والتي يبدو أن جميع البشر يعانون من ضعف قدرتها الأدائية في نهاية يوم العمل، والذي قد يومي إلى زيادة صعوبة استيعاب المتلقي لمحتوى أي ما يقرأه إلكترونياً في نهاية اليوم بعد أن استنزفت قدرات القشرة الدماغية ما قبل الجبهية في عقله. بالتوازي مع ذلك من الواضح بأن تفعيل اللوزة الدماغية عند قراءة أي نص بشكل إلكتروني لا بد أن يستدعي بشكل غير مقصود نهج التوجس والتخوف ومشاعر القلق المسؤولة عنها تلك المنطقة الدماغية، وهو ما يجعل من عملية الاستذكار والاستحفاظ عملية صعبة، إذ أن الدماغ يعمل وفق قاعدة أساسية تنطوي على أنه حينما تتصعد مشاعر القلق والتوجس والخوف سواء بشكل محسوس أو حتى بشكل غير واع لا يدركه صاحبه فإن الدماغ حينئذٍ لا بد أن يسخر قدراته لتكشف الخطر المحدق به، وعدم بذل موارده الطاقية المحدودة من الحريرات على الاستبطان الفكري للأفكار التجريدية والتخييل والإبداع.

وذلك التوصيف الأخير يعني بأن قدرة الدماغ البشري أكبر على تفهم ما يقرأه تجريدياً وإبداعياً وتخيلياً حينما يكون ما يقرأه بشكل مطبوع، وأقل من ذلك بكثير حينما يكون ذلك إلكترونياً على جهاز رقمي.

ويضاف إلى ذلك عنصر مهم يتمثل في القدرة الفائقة للدماغ على الاستذكار البصري، وهي القدرة التي تنقت وتشذبت عند بني البشر خلال ملايين من السنين، وتتمثل في قدرتهم في ميدان القراءة على استذكار هيكل وبنيان ومكان الجمل التي يقرؤونها، وكيفية ترتيبها في الصفحة التي يطالعونها في كتاب مطبوع، وهو ما يعزز إمكانيات ترسيخ المعلومات والأفكار التي يتم قراءتها بشكل أسرع وأكثر ثباتاً حين تعامل أولئك القراء مع نص مكتوب في كتاب مطبوع ورقياً ليس هناك من احتمال لتغيير هيكل ومكان الجمل والفقرات في صفحاته، وهي ميزة لا يمكن توفيرها عند القراءة من أي كتاب إلكتروني يتغير مكان الفقرات فيه مع كل عملية فتح للكتاب الإلكتروني خاصة إذا كان ذلك الكتاب معداً بصيغة النشر الإلكتروني العالمي المعروفة بـ EPub، وليس وفق النموذج الأقل ديناميكية في عملية النشر الإلكتروني والمعروف بـ PDF.

ولا يعرف علماء وظائف الدماغ البشري السبب الفعلي الذي يؤدي إلى التفارق السالف في طبيعة التفعيل الفيزيولوجي والتشريحي لمناطق الدماغ البشري حينما يقوم الإنسان بقراءة النص نفسه من كتاب ورقي مطبوع، أو بشكل إلكتروني من جهاز رقمي. ولكن هناك اعتقاد سائد لدى أولئك العلماء أنفسهم بأن السبب وراء ذلك يرجع إلى أن يكون مرتبطاً بأن الدماغ لا يمكن له أن يتعامل مع كل خبرة جديدة يتوجب عليه مقاربتها كما لو أنه يتعلمها للمرة الأولى كما تعلم المشي في طفولته الباكرة تعثراً وسقوطاً إلى حين تمكنه من المشي بكفاءة، وهو ما يعني بأن الدماغ لا بد له من أن يقوم بتصنيف أي مهمة يواجهها في الحيز الأقرب إدراكياً وعاطفياً وفيزيولوجياً لها. وهو ما يعني في حيز قراءة الكتاب المطبوع عند بني البشر المعاصرين ارتباطه بخبرات التعلم المدرسي السالفة، والثقة بصحة المعلومات التي ترد في الكتاب المطبوع، والتي طالما تم التوجيه إليها كمصدر موثوق للمعرفة والتعلم، وهي السمات التي لا تتوفر في قراءة النصوص الإلكترونية بشكلها المستحدث الذي لما يتسيد على المستوى الكوني إلا خلال العقدين الأخيرين، مع بزوغ الفضاء الإلكتروني المهول بمكوناته الفسيفسائية والغرائبية والتي يختلط في لجها الحابل بالنابل، ويصعب فيه فرز الصادق الصدوق عن الملفق الخبيث، وهو الواقع الذي استدعى من بني البشر الحذر والحيطة والتوجس واستدعاء طاقات الغربلة الدماغية وقدرات القشرة الدماغية ما قبل الجبهية في عقولهم لمساعدتهم على فرز الغث عن السمين عند مقاربة أي نص إلكتروني باتكاء على خبراتهم السابقة في طبيعة ومحتوى ونتائج التعامل مع منتجات طوفان المعلومات الإلكترونية التي تعاملوا معها سابقاً.

ومن ناحية أخرى لا بد من الالتفات إلى الحقيقة العلمية الراسخة والتي ترتبط بما يدعى «لدونة الدماغ»، والتي تعني بأن الدماغ جهاز عضوي فائق القدرات على تغيير وإعادة هيكلة ونظم الوظائف البيولوجية والكهربائية والارتباطات بين داراته الدماغية بشكل مستمر يهدف في المقام الأول لزيادة وتعزيز قدرات التكيف لدى بني البشر مع محيطهم الحيوي، وبأن تلك القدرة الفائقة تكون في أعلى مستوى من الكفاءة خلال السنين الأولى من عمر الإنسان، وتنخفض مع تقدمه في العمر بدرجات متفاوتة تتعلق بمستوى استثمار الفرد لطاقات دماغه وتعرضه لتجارب ومعارف وخبرات مستجدة في سياق حياته اليومية. وذلك التوصيف الأخير لا بد أن يعني من الناحية العملية عدم معرفة باحثي وعلماء وظائف الدماغ البشري بشكل دقيق كيف سوف يكون ارتكاس الأطفال في المستقبل إذا كانت وسيلتهم الوحيدة للتواصل مع أي نص مكتوب هو أن يكون بشكل إلكتروني، دون أن يكون لديهم إمكانية الوصول والتعامل مع النصوص المطبوعة ورقياً، إذا سلمنا بأن الحال سوف تكون كذلك في المستقبل وأن الكتاب المطبوع وما كان على شاكلته في طريق الامحاء والاندثار خلال المستقبل المنظور.

ومن مدخل واقعي أخلاقي فقد يمكن للعاقل ألا ينظر إلى رحيل الكتاب المطبوع إلا بأنه ارتحال غير مأسوف عليه، وأنه تغير كان لا بد من حدوثه بالنظر إلى أكداس الهواتف الجوالة الموجودة بين أيادي بني البشر المعاصرين، والتي لا تستخدم في غالب الأحايين إلا لغايات جلها مضيعة للوقت والجهد إن لم تكن مضرة ومشوهة وممرضة عقلياً ونفسياً في سياق كثير من الغثاء الذي تنطوي عليه في أخاديدها ومفاعيلها. وهو ما يعني أن احتمال قيام ذلك الطوفان من الهواتف الجوالة بأي عمل مفيد منها قد يتمثل في قراءة كتاب ما بشكل إلكتروني بدل قراءته بشكل مطبوع لا بد أن يكون تغيراً محموداً من الناحية العملياتية كحد أدنى لاستنباطه هدفاً مفيداً وإيجابياً من تقانات مكلفة عبر استخدامها بشكل إيجابي، قد يكون أقله التخفيف من هول قطع الأشجار الجائر في غير موضع من أرجاء المعمورة، والذي كثير منه يذهب من أجل تصنيع الورق اللازم لطباعة المطبوعات والكتب، بالإضافة لتوفيره نفقات وتكاليف شحن المطبوعات الثقيلة الوزن بطبيعة حالها، وتوفير الوقود الأحفوري اللازم حرقه لنقلها من مكان لآخر، خاصة وأن البشرية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الولوج في مرحلة اللاعودة في سياق كارثة تسخن كوكب الأرض جراء زيادة تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، والناجم أساساً عن الإفراط المنفلت من كل عقال عقلاني أو أخلاقي في استخراج وحرق الوقود الأحفوري خلال بضعة العقود الأخيرة، بالتوازي مع السعار البربري لقطع الغابات والأشجار هنا وهناك، والتي تمثل المصدر شبه الأوحد لاستهلاك الفائض من غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي عبر ما تقوم به من فعاليات كيميائية في سياق عملية التركيب الضوئي.

وقد يستقيم في هذا السياق أيضاً التطرق إلى بعض المزايا التطبيقية التي يوفرها الكتاب الإلكتروني التي تتجاوز سهولة حمله وتخزينه إلى حيز توفير العناء وجهد البحث المضني جسدياً وعقلياً على الباحث لإيجاد المعلومة التي يسعى لإيجادها في النص الذي يقرأه، خاصة وإن كانت معلومة أو أطروحة مغمورة وليست بارزة بشكل يستدعي وضعها في فهرس الكتاب المطبوع أو ذيل الكلمات المفتاحية فيه، وهو ما يعني بأن الكتاب الإلكتروني قد ينطوي على مجموعة من المزايا التفاضلية الإيجابية في ميزان الباحثين عن المعرفة بشكل بؤري وخاصة في سياق البحث العلمي والمعرفي التنقيبي والاستقصائي بأشكالها المختلفة.

وأغلب الظن بأنه سوف يكون هناك ازدياد مضطرد في عملية النشر الإلكتروني بأشكالها وتلاوينها المختلفة خلال العقود القادمة بشكل يزيد من نسبة ما هو منشور إلكترونياً على حساب ذلك المنشور ورقياً، دون أن يؤدي ذلك إلى غياب واندثار مطلق للكتاب المطبوع بشكل كلياني نظراً للمزايا التفاضلية التي قدمها، والتي استكنهها واستمرأها الكثير من أبناء أجيال الكهول والشيوخ المعاصرين، وهو ما قد يحتمل تغيره حينما تتقدم السنون، وينتقل أطفالنا ليحلوا محل أسلافهم من الكهول والشيوخ في قابل الأيام.❑❑

الحظيرة هي المكان الانسب

❑ منقول...عن التراث الشعبي

..

اشترى رجل حمارا ومن فرحته بالحمار أخذه إلى سطح بيته وصار الرجل يعلي شأن الحمار ويريه مساكن قبيلته وعشيرته من فوق السطح حتى يتعرف على الدروب والطرق ولا يضيع حينيرجع للبيت وحده.

آل يسار الطائي
العراق

عند الغروب أراد الرجل أن ينزل الحمار من على السطح لإدخاله الحظيرة فحزن الحمار ولم يقبل النزول فقد أعجبه السطح.

حاول الرجل أن يقنعه مرات عديدة وحاول سحبه بالقوة أكثر لم يقبل الحمار النزول وبدء الحمار يدق رجله بين احجار السطح وصار يرفس وينهق في وجه صاحبه.

البيت كله صار يهتز والسقف المتآكل للبيت العتيق أصبح عاجزا عن تحمل حركات ورفسات الحمار فنزل الرجل بسرعة ليخلي زوجته وأولاده خارج المنزل.

وخلال دقائق ... انهار السقف بجدران البيت ومات الحمار فوقف الرجل عند رأس حماره الميت وهو مضرج بدمائه وقال:
والله الغلط ليس منك لأن مكانك في الحظيرة أنا الغلطان لأنني صعدت بك إلى السطح❑❑

حليمة الفنلندية

(1972-1890)

د. حسيب شحادة
فلسطين

❑ أُفتتح في الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ (ويُعرف هذا اليوم بالاسم "الثلاثاء الأسود" إثر عمليات التفجير الانتحاريّة التخريبيّة في نيويورك وواشنطن) معرضٌ يضمّ ثلاثًا وأربعين صورةً فوتوغرافيّة خاصّة بقرية أرْطاس الفلسطينيّة في مُتحف الثقافات، تِنِسپَلَتْسي (Tennispalatsi, Eteläinen Rautatienkatu 8) في هلسنكي. هذه الصُّور لبعض الأشخاص، كبارًا وصغارًا، ذكورًا وإناثًا، من الفلسطينيّين مشفوعة بشرح كافٍ بلغات ثلاث، الفنلنديّة والسويديّة، لغتي فنلندا الرسميّتين، وبالإنجليزيّة. وهذا المعرض، كان مفتوحًا للزوّار أيّام الثلاثاء–الأحد من الساعة العاشرة صباحًا وحتّى الثامنة مساءً، وذلك لغاية التاسع من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

قام بتنظيم هذا المعرض كلٌّ من المصوّرة والصحفيّة السويديّة ميا غروندال (Mia Grondahl)، التي زارت أرطاس للمرّة الأولى عام ١٩٩٧، والمعهد الفنلنديّ في الشرق الأوسط (FIME)، الذي أُسِّس عام ١٩٩٤، بمساعدة بعض المؤسّسات مثل المؤسّسة الثقافيّة الفنلنديّة والمعهد السويديّ. وضمّ المعرضُ صُورًا ٱلتقطتها عدسة كاميرة حليمة في العشرينيّات والثلاثينيّات من القرن العشرين وأخرى، وفي بعض الحالات لنفس الأشخاص، ٱلتقطتها السيّدة غروندال قبل أربع سنوات. من تلك الصور اللافتة للنظر، صورة للسيد إبراهيم عودة العجوز، ابن التسعين عاما.

الجدير بالذكر، أنّ مثل هذا المعرض تحت الاسم "صُور من الأراضي المقدّسة"، كان قد أُقيم في آبنة البلطيق عام ١٩٣٥ في متجر ستوكُمان الشهيرفي وسط العاصمة وفي عام ١٩٩٠. ولا بدّ من مقارنة هذه الصُّور بتلك التي نُشرت في كتاب السيّد وليد خالد "قبل شتاتهم. تاريخ مصوّر للفلسطينيّين، ١٨٧٦-١٩٤٨ والصادر عام ١٩٨٤ (Before their Diaspora. A Photographic History of the Palestinians). وللصور النادرة والصادقة حول حياة الفلّاحين في أرطاس وجيرانهم، التعامرة البدو، في العشرينيّات من القرن العشرين، كما وثّقتها كاميرة حليمة، أهميّة لا تنتطح فيها عنزان.

تقع قرية أرْطاس على مسافة ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب الغربيّ من بيتَ لحم، وعلى مقرُبة من برَك الملك سُليمان (أو بِرك المرجيع، كما عُرفت في العهود الإسلاميّة)، ويبلُغ عدد سكّانها ستّة آلاف نسمة، وهم بأغلبيّتهم الساحقة من المسلمين. تتحدّر لفظة "أرْطاس" من أصل لاتيني يوناني Artasium، ومعناها الجنّة أو البستان، والقرية ذات الستّة ينابيع، كانت مأهولة بالسكّان منذ ستّة آلاف سنة. ويُروى أنّ أوّل مسجد في أرطاس، كان قد أُقيم عام ٦٣٦ في أعقاب وصول الخليفة عُمر بن الخطّاب إلى القدس، وحمل المسجد اسمه. ويبدو أنّ ما جاء في سفر نشيد الأنشاد ٤: ١٢ "عروستي يا لها من جنّة مقفلة، جنةٌ مقفلةٌ هي وينبوع مختوم" هو وصف لهذه القرية. وفي القرية ديْر يُدعى Hostus Conclusus، أقامه الطليان سنة ١٨٩٤ واستخدم ميْتمًا للبنات، وعمِل في الدير كاهن عُرف بالكنية "أبو عيسى". وبهذا الاسم اللاتينيّ عرفت القرية في حقبة الصليبيّين. وعرفت القرية أيضًا بالاسم " رأس العرقوب" حتى منتصف القرن الثامن عشر. صودرت بعض أراضي القرية بموجب قانون سنّته حكومة مناحيم بيچن في الثلاثين من تموز/يوليو عام ١٩٨٠، ورمى إلى تهويد القدس، وقد وصلت مِساحة الأراضي الواقعة في لواء بيت لحم التي صادرتها إسرائيل حتى العام ١٩٩٥، إلى مائة وعشرين ألف دونم.

كانت نِساء فنلندا قد تمتّعن بحقّ الالتحاق بالجامعات منذ السبعينيّات من القرن التاسع عشر، إلاّ أنّ أبواب الجامعات، بقيت موصدةً في وجوههنّ حتّى العام ١٩١٦. ومنذ عام ١٩٨٧ أخذ عدد الخرّيجات الجامعيّات يفوقُ عدد الخرّيجين، ولكن نسبة الأساتذة من الجنس اللطيف ما زالت متدنية، ١٨٪ فقط.

مَن هي الستّ حليمة يا تُرى؟ يبدو لنا أن قلّة قليلة من العرب تعرف شيئًا ما عن هذه الباحثة، إذ أن بعض الذين يكتبون عن الفولكلور الفلسطينيّ يظنّون أنّها "إسكندنافية ومن بولندا" في نفس الوقت! (التراث الشعبيّ، مجلّة شهريّة يصدرها المركز الفولكلوري في وزارة الإعلام، بغداد، ع. ٥، س. ٨، ١٩٧٧، عدد خاص بالتراث الفلسطيني، ص. ١٥٣) إنّ اسمها وأرطاس صِنوان لا ينفصمان، إنّها بشجاعتها ورباطة جأشها قد وثّقت حياة أرْطاس بعاداتها وتقاليدها من المهد إلى اللحد، وبفضل أبحاثها تبوّأت أرطاس بخاصّة وفلسطين بعامّة مكانة على خارطة علم الإنسان في العالم.

ولدت الباحثة الانثروبولوجيّة الفنلنديّة الناطقة بالسويديّة كلغة أُمّ، هِلْما غرانكڤيست (Hilma Granqvist) في بلدة سِپّو (Sipoo) بالقرب من هلسنكي عام ١٨٩٠، وهي من طلائع الباحثين في علمَي الإنسان والاجتماع في فنلندا. أنهتِ المرحلة الثانويّة في العام ١٩١١ ثمّ التحقت بجامعة هلسنكي سنة ١٩١٨، حيث درست الفلسفة الاجتماعيّة والأخلاقيّة وأساليب التربية وفِقه اللغتين السويديّة والألمانيّة. حصلت على شهادة الماجستير بعد ثلاث سنوات، وتناولت رسالتُها موضوع العلاقة المتوتّرة ما بين الدين والعِلم. إنّ موضوع دوْر الدين في العالَم الحديث كان قد استحوذ على جلّ اهتمام الباحثة في بداية مِشوارها العلميّ. وكان موضوع رسالتها لدرجة الليسانس "النساء في العهد القديم"، إلا أنّها توقّفت عن متابعة هذا البحث. سافرت إلى برلين وحضرت مساقًا سنويًّا حول أسفار العهد القديم، وبعد ذلك ٱنتقلت إلى لايبزج ودرست هناك علم الآثار واللاهوت. في تلك الفترة، أيقنت السيّدة غرانكڤست أنّ ما تسنّى لها من جمع المادّة المطلوبة لم يكن كافيًا لكتابة الأطروحة. وعليه قرّرت التحوّل لبحث موضوع آخر، ألا وهو النساء في فلسطين. لقد تحولّت هِلْما غرانكڤيست من باحثة في اللاهوت التوراتيّ إلى خبيرة في علم الإنسان. كانت "الستّ حليمة"، كما عُرفت بين العرب في فلسطين، ذات ميول تحرريّة (ليبراليّة) دينيًّا واجتماعيّا. ففي عام ١٩٣٩، على سبيل المثال، نادت بحق المرأة وبقدرتها على أن تشغَل مناصبَ في الكهنوت والقضاء وحتّى رئاسة الجمهوريّة. هذا الطلب أو الحُلم الأخير، قد تحقّق عام ٢٠٠٠ في فنلندا، إذ أصبحت السيّدة تارْيا هَلُونِن (Tarja Halonen) الرئيسة الجديدة لجمهوريّة فنلندا.

يبدو أن السيّدة هِلْما غرانكڤيست كانت أوّلَ امرأة فنلنديّة غادرت فنلندا بغية إعداد أطروحة الدكتوراة، إذ إنّها سافرت أوّلاً إلى برلين للاطّلاع على ما في مكتباتها وأراشيفها من مصادرَ، ثمّ توجّهت في بعثة أثريّة إلى فلسطين في خريف العام ١٩٢٥، للتعرّف عن كثب على أرض التوراة وسكّانها. بعد وصولها للأراضي المقدّسة، إلى قرية أَرْطاس حيث مكثت هناك حتّى عام ١٩٣١، غيّرت هِلْما برنامجَها الدراسيّ بالكامل قائلة إنّ البحثَ ينبغي أن ينصبّ على الناس الأحياء لا على الأموات، نساء العهد القديم. بعبارة أخرى، بدلاً من متابعة البحث في موضوعها الأوّل، أي ضرورة تعلّم اللغة العبريّة والماضي القديم لليهود، شرعت في تعلّم اللغة العربيّة والتعرّف على الحاضر الراهن. يذكر أنّ الستّ حليمة توجّهت إلى العمل الميدانيّ في فلسطين دون دعم أيّة مؤسّسة. وكان مرشدها في برلين Ernst Sellin 1867-1946 اللاهوتيّ البروتستنتيّ قد عبّر عن شعوره بما معناه: إنّ أيّة امرأة قبل حليمة إذا قامت بعمل ميدانيّ في الشرق الأوسط قد عُدّت مجنونة.

عاشت هِلْما غرانكڤيست حوالي ستّ سنواتٍ في أرْطاس الصغيرة، التي بلغ عدد سكّانها آونتَها حوالي خمسمائة نسمة، وتعلّمت لهجةَ سكّانها، وتعرّفت على عاداتِهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم، وعُرفت باسم "الستّ حليمة" بالعربيّة. سكنت حليمة في بيت لويز بالدنسپيرجر (Louise Baldensperger) التي كانت قد عاشت في أرطاس ثلاثين سنة، وقد أطلق أهل القرية عليها الاسم "الستّ لويزا"، وكانت مقدسيّة المولد ووالدها من الألزاس، وعمل في التبشير، وكان قد بنى منزلا للعائلة في أرطاس.

اختارت حليمة راويتيْن صديقتين لها، هما عليا(ء) إبراهيم التي كانت صمّاء وحمدية سَنَد التي كانت كفيفة البصر.

حصلت حليمة على شَهادة الدكتوراة بأمتياز عام ١٩٣٢ على بحثها المؤسوم "ظروف الزواج في قرية فلسطينيّة"، وقد صدر في جزئيْن في العامين ١٩٣٢ و ١٩٣٥. كما كتبت في مقدّمتها للجزء الأوّل ما معناه: "كنتُ بحاجة للعيش بين الناس لأسمعهم يتحدّثون عن أنفسهم في أرْطاس وأُسجّل ذلك عند تطرّقهم لحياتهم وعاداتهم، وكيف يتطلّعون إلى الأمور، لذلك قرّرتُ البقاء في فلسطين". وصادق على الأطروحة مرشدها، أستاذ الفلسفة إدوارد وسترمارك (Edvard Westermarck)، رئيس أكاديميّة أوبو المعروفة في مدينة توركو في غرب فنلندا، بتقدير ممتاز، وذاع صيت الباحثة ليس في بلادها بل في الخارج. وبالرغم من ذلك، لم تُقبل حليمة لسلك التدريس الأكاديميّ في جامعة هلسنكي. كما لم تُوفّق في الحصول على درجة الأستاذيّة المشاركة في الجامعة ذاتها. أضِف إلى ذلك، أنّ أطروحتَها لم يُصادِق عليها عامَ ١٩٣٢ الأستاذُ Gunnar Landtman في جامعة هلسنكي.

قد تُعلّمنا هذه الحادثة الفذّة، بأنّه ينبغي على الباحث، وبالأحرى الباحثة ألا تسبِق عصرَها كثيرًا، أو أكثر ممّا فيه الكفاية. والحقّ يقال، إنّ أمنيّة حليمة الأولى، كانت أن تُصبح معلمةً مدرسة. يُضاف إلى ذلك أنّ الاستشراق الفنلنديّ القديم، عمَد إلى عدم إدراج الدراسات الاجتماعيّة والانسانيّة في نطاقه. إذ كان، على ما يبدو، باحثان اثنان قد سيطرا وهيْمنا على هذا الاستشراق والتعريف به شعبيًا هما: Knut Tallqvist (١٨٦٥-١٩٤٩) و Harri Holma (١٨٨٦-١٩٥٤) وقدِ اعتبرا دراساتِ كلّ من وسترمارك وحليمةَ بأنّها غير آستشراقيّة، وقد يبدو للقارىء أنّ المستشرق في غنىً عن السيطرة على اللغة، العربيّة في هذه الحال، علمًا وعملا، نظريةً وتطبيقا، بل يكفي فهم المقروء بالعين وترجمته إلى لغة المستشرق.

حالة مثل هذا المستشرق، في تقدير الرأي العام، لا يُحسد عليها، وقد يقوم بأبحاث معيّنة لا تتطلّب معرفة كاملة وشاملة وعميقة باللغة، قديمها وحديثها، مكتوبها ومنطوقها، ولكنّه لا يُعقل أن يغدو أُستاذًا للغة العربيّة، بل وفي أحسن الحالات، قد يُطلَق عليه أنّه أستاذٌ عن / حول / بخصوص / بشأن نُتفة / نُطفة من العربية، أو مترجم لبعض نصوصها، قد يوفّق في بعضها ويخفِق في البعض الآخر، إذ أن العُمق والشموليّة نظريّة وتطبيقًا من سمات الأستاذيّة الأساسيّة. ومن لم يملِك ناصية العربيّة في مهاراتها (skills) الثلاث، القراءة والكتابة والتكلّم، في أنماطها المختلفة، العربية الأدبيّة المعاصرة (MSA) والقديمة وإحدى العامّيّات ولغة بيْنَ بيْنَ (لغة المثقّفين)، يكون بعيدًا عن العُمق والشموليّة، بقدر مدى قُصور معرفته تلك. والحقّ يقال، إن للاستشراق الفنلندي أياديَ بيضاءَ ناصعة في مجالّي النظريّة والتطبيق، وما أسماء الباحثين، جورج آوغست قْلين (Georg August Wallin 1811-1852) ويوسي تَنيلي أرو (Jussi 1928-1983 Taneli Aro)، رحمهما الربّ، والعزيز هيكّي قْاينِي ك. يالْفا (Heikki Väinö Kaleva Palva, 1935)، حفظه الباري وأطال طيلته، إلّا خير دليل إلى ما نرمي إليه. لكن منذ مستهلّ القرن الحاليّ والدراسات العربيّة في هلسنكي، لغة وأدبًا، تُعاني الأمرّيْن، إذ أنّ أُستاذ هذا المساق حتّى فترة وجيزة، لا يتكلّم العربيّة المعياريّة الحديثة ولا لغة بين بين ولا أيّة لهجة عربية حديثة، وقُلِ الأمر ذاتَه بخصوص الكتابة أيضا. باختصار شديد: ترجمة من العربيّة إلى الفنلنديّة، لا غير!

يُذكر أن وِسْترمارك كان قد بحث الشعائر الدينيّة، والاعتقادات في مرّاكش عام ١٩٢٦. وممّا يجدر ذكرُه أيضًا أنّه قد أورد في سياق محاضرة ألقاها في لندن سنة ١٩٠٧ ما معناه: إنّي مقتنع أنّه عند التعامل مع شعوب غير أوروبيّة، فإنّ لتطبيق المعرفة على ظروفهم، سيكون أكثرَ نفعًا ونجاعةً من البارود، وسيكون الأمر أكثرَ إنسانيةً وأقلّ كلفةً. كما أنّه ارتأى بأنّه لا يجوز للباحث أن يُطلقَ آراء بشأن العقليّة والأخلاق، لدى ثقافة معيّنة على أُسس لغويّة.

في الثمانينيّات من القرن العشرين، نبشتِ الأبحاث النسائيّةُ ملفَّ حليمةَ من جديد، وأظهرت مستوى دراساتها الرفيع حول جوانبَ عديدة لحياة قرية أرطاس الفلسطينيّة. وتندرج أبحاثُها المتمثّلة في المؤلّفات المذكورة أدناه، في نطاق ما يسمّى بمدرسة الانتربولوجيا الحديثة، التي ظهرت في إنجلترا في العشرينيّات والثلاثينيّات من القرن العشرين. شدّدت تلك المدرسة على البحث الميدانيّ، والملاحظة المباشرة، وفهم ثقافات أجنبيّة من منظور شعوبها، من الداخل. وهذه نقطة في غاية الخطورة والأهميّة، إذ لا يجوز تقييم ملامحَ ثقافيّة أو حضاريّة لشعب ما، على ضوء مبادىء ومعايير أجنبيّة. فما قد يكون أمرًا عاديًّا في مجتمع ما، كعدم تقديم فنجان من القهوة مثلًا لضيف لم يُدع (ويُعرف باللغة الفنلنديّة باللفظة المركّبة kuokkavieras ومعناها الحرفي "ضيف المجرفة/المعزقة/الطورية) لذلك، هو تصرّف غير أخلاقيّ بل ومُشين بالنسبة لشعب آخرَ، واللبيب بالتلويح قانع.

كما لا بدّ من الإشارة، إلى أنّ حليمةَ كانت مصوّرةً بارعة، وخلّفت للأجيال بعدَها ما يقارب الألف صورة فوتوغرافيّة. هذه المجموعة القيّمة من الصور محفوظة في "مُتحف البشريّة" في لندن. كما أنّ مكتبتها بالمطبوعات الإنجليزيّة والعربيّة والألمانيّة محفوظة هناك أيضًا، في حين أنّ ما كان بحوزتها من مصادرَ باللغة السويديّة، لغة أمّها، موجود في مكتبة الجامعة، أوبو أكاديمي في توركو (Åbo Akademi).

اِعتادت حليمة أن تنشر مقالاتٍ عن فلسطينَ وعن أديان مختلفة، في الصحف، كما كانت تُلقي المحاضراتِ في الكليّات المسائيّة في فنلندا (työvainopistot) وعبر الأثير أيضا. كما أنّها درّست علم النفس في مدرسة للبنات.

تضمّ مؤلفاتُها ستة مجلّدات وكان أوّلها أطروحتها للدكتوراة:

١) ظروف الزواج في قرية فلسطينية، ج. ١ سنة ١٩٣١، ج. ٢ سنة ١٩٣٥- Marriage Conditions in a Palestinian Village, New York 1975
٢) الولادة والطفولة بين العرب، دراسات في قرية مسلمة في فلسطين، ١٩٤٧- Birth and Childhood among the Arabs: Studies in a Muhammadan Village in Palestine, Helsinki 1947, 1975
٣) مشاكل الطفل لدى العرب، ١٩٥٠- Child Problems among the Arabs.
٤) الوفاة والدفن لدى المسلمين: دراسة عادات وتقاليد عربيّة في قرية في الأردن ١٩٦٣-١٩٦٥- Muslim Death and Burial: Arab Customs and Traditions Studied in a Village in Jordan. Helsinki 1963-1965.
٥) صورة قرية فلسطينيّة: الصور الفوتوغرافيّة لهلما غرانكڤيست. لندن ١٩٨١. Portrait of a Palestinian Village: The Photographs of Hilma Granqvist- London 1981. يُعتبر هذا الكتاب تاريخا حيًّا مصوّرًا لأهل أرْطاس قبل أكثر من سبعين عامًا تقريبا.

٦) وأخيرًا هناك كتاب بالسويديّة للستّ حليمة بعنوان "المشكلة الدينيّة في العصر الحاضر، وقد صدر في هلسنكي عام ١٩٣٥- Det religiösa problemet i nutiden.

يظهر، كما أسلفنا، أنّ قيمةَ هذه الأبحاث (التي تضمّ ١٤٧٧ صفحة) علميًا، لم تتأكّد إلا في الثمانينيّات من القرن العشرين، إثر الاهتمام الواضح في الثقافة النسائيّة في العالم. أستاذ فنلنديّ جامعي معروف مثل آيلي ساريسَلو (Aapeli Saarisalo 1896-1986) الذي اهتمّ باليهوديّة والتبشير، زار الأراضي المقدّسة مرارًا وتكرارًا ومكث فيها مددًا متفاوتة، لم يقتنع بمستوى أبحاث حليمة الميدانيّة آنفة الذكر، وقد يكون لتوجّهه الصهيونيّ، كما يرى البعض، ضلع في ذلك الموقف.

عادت "حليمة" (وكنت على وشك الانزلاق والقول "عادت حليمة لعادتها القديمة") إلى أرطاس للزيارة، بعد جَهد مادّي جاهد في العام ١٩٥٩، ولم تعثر على أيّة من أحبّائها، لويزا وعليا(ء) وحمديّة. هناك أهميّة جليّة ثقافيًّا ولغويًّا لمؤلفات حليمة. من حيث الجانب اللغويُّ تتمثّل الأهميّة في الأمثال واللهجات كما كانت الحال عليه في أوائل القرن العشرين. قد يكون من المجدي مقارنة ما جاء في مؤلّفاتها مع ما جمعه الباحث الفلسطينيّ، الدكتور مصطفى البرغوثي، بعد ذلك بنصف قرن من الزمان في كتابه "القصص العربيّة الشعبيّة من أرْطاس، عربي-انجليزي، ١٩٨٧".

ومن الأمور اللافتة للانتباه في أبحاث الدكتورة حليمة، ما ورد حول العوامل الفاعلة في اختيار شريكة الحياة. لقد وجدت حليمة في الثلاثينيّات من القرن العشرين أنّ العرب في أرطاس يُعطون العاملَيْن الطبقيّ والسياسيّ وزنًا أكبر من العامل الدينيّ عند الزواج. كما وتُضيف أن الزواج المختلط بين المسلمين والمسيحيّين كان شائعًا آنذاك.

سبقت حليمةَ باحثتان، هما چريس كروفوت ولويزا بالدنسبرغ، بكتاب عن أرطاس عنوانه "من شجرة الأرز إلى حشيشة الزوفا". وممّا يُذكر هنا أنّ الدكتورة نبيلة إبراهيم، أستاذة الأدب الشعبيّ في جامعة القاهرة، كانت قد خصّصت الفصل الثاني (ص. ٢٠٠-٢١٦) من كتابها -الدراسات الشعبيّة بين النظريّة والتطبيق- القاهرة د.ت، للتحدّث عن الدراسات الشعبيّة في فنلندا، وتطرّقت إلى زيارتها للدكتورة هِلما غرانكڤيست في فنلندا في شهر آب من عام ١٩٦٧.

لا بدّ من الإشارة، إلى أنّ سكّان قرية أرطاس، كانوا قد أقاموا قبل عقدين من الزمان ونيّف، مُتحفًا إثنوغرافيًّا في القرية ،على هدْي أبحاث حليمة طيّبة السمعة والصيت. وهناك مشاريعُ تُعنى بوضع المرأة والعائلة في فلسطين. ويقول المعلم موسى سَنَد، ابن فاطمة حمدة خلوي، التي تظهر في إحدى الصور الأولى لحليمة: "هناك ثلاث نساء في

حياتي، والدتي فاطمة، زوجتي منى والست حليمة". وقد أقام السيد سند "مركز الفولكلور في أرطاس" في بيت قديم وهناك مشروع آخرُ يسعى لتحقيقه وهو جعْل البيت الذي سكنت فيه حليمة مُتحفا. في ثنايا خمسة مجلّدات حاولتِ الباحثة الفنلنديّة حليمة، أن تصف بدقّة وأمانة، حياة الفلّاحين في أرطاس قبل أكثر من ثمانية عقود.

في أيلول العام ٢٠١٥ صدرت ترجمة أُطروحة الدكتوراة إلى العربيّة: هيلما غرانكفست، أحوال الزواج في قرية فلسطينيّة؛ ترجمة خديجة محمّد علي قاسم ١٩٣٤-٢٠٠٩) من مواليد سلوان والدكتورة إخلاص القنانوة، الباحثة الأردنيّة في اللغات الساميّة الشماليّة الغربيّة، ومراجعة عمر الغول. بيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، ٧٠٤ ص.

يضمّ هذا المجلّد جزئين، وفي الجزء الأول أربعة فصول موزّعة على ٢٩٣ صفحة وفيها بعد التوطئة والشكر والمقدمة: منهج البحث؛ سنّ الزواج؛ اختيار العروس؛ الزواج بالعياض. يتكوّن الجزء الثاني من أحد عشر فصلا تمتدّ من ص. ٣٠٣ وحتى ٦٦٩ وتحمل هذه العناوين الرئيسيّة: مراسم الزواج؛ مواسم الأعراس؛ الاستعداد والاحتفالات التمهيديّة للأعراس؛ إحضار العروس؛ في بيت العريس؛ أسبوع العرس؛ المرأة في بيت زوجها؛ تعدّد الزوجات؛ مشكلة المرأة الحردانة (المرأة المتزوّجة وبيت أبيها)؛ الطلاق؛ الأرمل والأرملة. في الصفحات الأخيرة ٦٧١-٧٠٤ وضعتِ الخاتمة وقائمة المراجع وثبت الأعلام والثبت التعريفيّ وفهرس عام. استخدمتِ الباحثة اثنين وسبعين كتابًا باللغات الأجنبية وعشر دوريات أجنبيّة في إعداد الجزء الأول، أمّا في الجزء الثاني فقد وصل عدد الكتب إلى مائة وخمسة كتب بلغات أجنبية وتسع وعشرين دورية أجنبيّة❑❑

ساخن جدًا جدًا

❑ شطيرة البيض المسلوق مع الطماطم والزيتون إلى جانبها فنجان شاي ساخن جدًا جدًا هو فطوري المفضل .. لكن ذهاب زوجتي في زيارة لبيت والديها هداني لفكرة تناول الفطور في أحد المطاعم لاسيما أن التغيير من وقت لآخر بالنسبة لي أصبح حاجة ماسة.

فوز حمزة
العراق

ارتديت ملابسي وخرجت متجها صوب مطعم يقع عند ناصية شارعنا .. حينما انتهيت من تصفح قائمة الطلبات .. وجدت أنواع كثيرة من الوجبات في القائمة إلا طلبي .. ماذا أفعل لمعدتي التي تحفزت للأكل فبدأ صداع الجوع يلف رأسي .. نظرات النادل المصوبة نحوي جعلتني أسرع بطلب شيئًا ما .. الجلوس في هذا الدفء ودرجة الحرارة في الخارج قاربت ستة تحت الصفر له ثمنه .. قلت له بعد أن اقترب مني بناء على إشارتي:
- أريد شايًا ساخنًا جدًا جدًا.

وأنا أسلمه القائمة عرف أنني لن أطلب شيئًا آخر.

بدأت ذرات الثلج تسقط بغزارة ومؤشر درجة الحرارة سجل انخفاض ثلاث درجات أخرى، فوجدت في ذلك دافعًا جديدًا للمكوث ...

وأنا ارتشف الشاي الساخن جدًا بدأت بالأنصات إلى صوت الموسيقى الهادئة المنبعثة من إحدى زوايا المطعم أما الأنوار الخافتة والهدوء الذي عم المكان أغروني بالاسترخاء قليلًا والاستمتاع بما حولي قبل أن تفتح باب المطعم ليدخل أربعة أفراد من الشرطة يتقدمهم ضابط ... بدؤوا يتفرسون في وجوه زبائن المطعم الذين لا يتعدى عددهم الستة وأنا سابعهم ...
لحظات وحضر مدير الصالة ليتحدث معهم بعدها راحت نظراتهم تتجه نحوي ... تقدم الضابط وطلب مني ما يؤكد هويتي بينما بقية الأفراد التفوا حولي ... وهو يعيد لي هويتي قال لي بعد أن قلبها بين يديه:
- تفضل معنا.

تقدم شرطي وكان أطولهم ليضع الأصفاد في يدي وسط ذهولي فسألتهم بصوت كأنه ليس لي:
- إلى أين ... هل هناك شيء؟
كنت كمن يحدث نفسه.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أركب فيها سيارة للشرطة ... سألت الرجل الذي جلس على يميني:
- ما الذي فعلته ... وإلى أين تذهبون بي ؟
نظر إليّ نظرة كانت كافية لإسكاتي طوال الطريق حتى طلبوا مني نزول السيارة.

في المخفر... أمروا شرطيًا بوضعي في غرفة التوقيف لحين حضور الضابط المعني بالتحقيق معي.

وأنا أسير بجانب الشرطي الذي أحكم مسك يدي ... أوهمت نفسي أن هذا حلم ليس إلا وسأستيقظ منه ... وقد أكدت لنفسي ذلك حينما وجدت نفسي وسط مجموعة من الرجال داخل غرفة ضيقة ومظلمة وكأنني أتفرج على مشهد سينمائي ... لكن الدقائق التي مرت أعادت لي بعضا من اتزاني فبدأت أقول بيني وبين نفسي أن هي إلا ساعات وأخرج .. أكيد حصل خطأ ما ... ربما في الأسماء ... نعم لابد من ذلك ... حديث النفس قطعه عليّ رؤية أحدهم ... تفرست في وجهه ... أنه مديري في العمل ... لطالما سرق جهودي ونسبها لنفسه ... لكن ماذا يفعل هنا؟.

لم ينتبه لي إذ كان منهمكًا في الحديث مع شخص كأني أعرفه ... إنه خطيب زوجتي السابق الوسيم الذي كان يثير غيرتي وحسدي ... الآن أنا أحسده أكثر من قبل لسبب لا أتمكن من البوح به ... إن كان تواجدهما في هذا المكان صدفة فما الذي يفعله بقال حارتنا؟ ... صحيح أنه رجل جشع لكن هذه ليست نقطة الخلاف الآن بل كنت احتاج لتفسير مقنع في اجتماع هؤلاء الثلاثة معهم جاري الأعور الذي لم أجد سببًا لكرهه أقنع فيه نفسي سوى أنني اتشاءم من رؤيته.

ما الذي يحدث؟

وقفت وسط غرفة الحجز أتطلع في وجوههم ... كنت أبحث عن وجه لا أعرفه ... لم أعثر ... سألتهم:
- ما الذي يحدث؟ لماذا نحن هنا ؟
أجابني رجل لا أتذكر أين رأيته من قبل:
- ليتك تخبرنا أنت ... ألست آخر القادمين؟

صاح أحدهم لم أتمكن من رؤيته لأنه يجلس في زاوية مظلمة:
- قصة كل يوم.

أنشغل الجميع عني فوجدت نفسي أعود لمكاني أحلم بشطائر البيض المسلوق بالطماطم والزيتون وإلى جانبها شاي لا يهم إن كان ساخن جدًا جدًا ... أو بارد جدًا❑❑

FOSNA
FRIENDS of SABEEL NORTH AMERICA
A Christian Voice for Palestine

أنا أكره قاطع التذاكر

❑ كان أبي آخر من مات من عائلتي، وبموته وجدتني وحيدة بطريقة خانقة وأعاني من وقت فراغ لا أعرف كيف أملأه، رغم أني واصلت ذات الحياة في مزرعة أبي، (بموته آلت ملكيتها إليّ)، مع قطيع الماعز وقبيلة الدجاج (لم أحسن إحصاء دجاجاتي بسبب حركتهن الدائبة) التي كنا نعتاش من بيع حليبها وسلال البيض الكثيرة في سوق المدينة القريبة من مزرعتنا.

سامي البدري
العراق

هل كان أبي يملأ حياتي بشيء لأشعر بالفراغ من بعد موته؟ أبداً، فقد كان يملأ وقته بزراعة ورعاية بعض الخضار في الصباح، أما وقت ما بعد الغداء وحتى منتصف الليل، فكان يمضيه في صحبة أصدقائه في السمر والشراب، كما أظن (كنت اشم رائحة الشراب تملأ البيت عند عودته كل ليلة) وحتى الصباح الذي وجدته فيه ميتاً في سريره، قبل ما يقرب من عام.

لم أفهم كيف كان يفكر أبي ولم أعرف ماذا كان يريد من حياته، فهو كان قليل الكلام ويتعامل مع الجميع بحيادية، وخاصة بعد موت أمي. أذكر كيف تلقى قرار أخي الوحيد، عندما أخبره بعزمه على السفر، فكل ما فعله هو إنه قال له ببرود: خذ ما تحتاج من مال من الصندوق كي لا تذلك الحاجة للآخرين وخرج لموعده مع أصدقائه، ولم يذكره بعد ذلك اليوم أبداً وكأنه نسيه فجأة أو لم يعد له وجود في الحياة بعد تلك اللحظة.

الصندوق الذي ذكرته هو صندوق خشبي قديم بارتفاع ساق الإنسان المتوسط الطول، وبعرض وطول ساعده، كان يدخر أبي فيه المال.. لحظة، فالأصح أن أقول الذي كان أبي يضع فيه المال، لأن الصندوق لم يكن له قفل، بل لم أر أبي يعد ما فيه من مال يوماً، فمع كل عودة له من المدينة كان يعطيني ثمن ما باع من حليب وبيض ويقول: ضعيها في الصندوق ويخرج.

لم يكن أبي بخيلاً، فبعد وفاة أمي (كانت تشتري لي كل احتياجاتي) داوم على أخذي معه للمدينة، كل بضعة أشهر، وهناك كان يعطيني رزمة كبيرة من المال ويقول لي برتابته المعهودة: خذي كل ما تحتاجين إليه ويتركني لثلاث أو أربع ساعات في السوق، قبل أن يعود ليساعدني بحمل مشترياتي، من دون أن يسألني عما اشتريت أو ينظر إليه.

بعد وفاته ببضعة أشهر، ومن أجل أن أقتل وقت إحدى الأمسيات فقط، نثرت ما في الصندوق من أموال على الأرض فوجدتها كثيرة جداً، بل وأكثر مما سمح مزاجي بعدها أصلاً. ولأني لم أجد ما أفعله بها، أعدتها إلى الصندوق وأغلقته وفكرت في أني سأحتاج لصندوق جديد أضعه إلى جانبه، لأنه كان قد شارف على الامتلاء برزم المال ولأني واصلت بعده بيع الحليب والبيض بذات الوتيرة.

****** ******

لم يطلبني رجل للزواج أبداً، رغم أني الآن في الثانية والثلاثين. صحيح أني لا أتمتع بذلك الجمال الذي يلفت نظر الرجال، لكني أيضاً لست دميمة تلك الدمامة التي تنفر الرجال. حولي، في بيوت المزارع التي تجاور مزرعتي، بل وحتى في أسواق المدينة التي أبيع فيها الحليب والبيض، أرى الكثير من النساء غير الجميلات متزوجات ولديهن أطفال، فلم أهملني الرجال يا ترى؟ هل سعيت أنا للفت انتباه الرجال إليّ أو تحرشت ببعضهم؟ نعم، ولكن ابتساماتي لم تقابل بغير التواءات سخرية شفاه الرجال. لماذا؟ هل أبدو لهم قروية ساذجة وبلهاء؟ كيف وأنا لا أرتدي غير سراويل الديجينز وأحدث الكنزات؟ لماذا تسلل اليأس إلى نفسي سريعاً ولم أعد أبتسم لرجل إذاً؟

في إحدى الظهيرات الدافئة اشتقت لأخي وتخيلت أنه سيعود في قطار ذلك المساء، فذهبت إلى محطة القطار لأستقبله. رصيف المحطة كان مزدحماً، بالمسافرين والمستقبلين، إلى حد أني لم أجد مقعداً أجلس عليه سوى المقعد المقابل لشباك مكتب قاطع تذاكر المحطة الزجاجي. كان المكتب ناتئاً عن بناء المحطة بنصف دائرة واسع، الأمر الذي كان يسمح لقاطع التذاكر بمراقبة رصيف المحطة بكامله، بل وبإحصاء كامل رواده لو شاء. أبهجني دفء شمس الشتاء وضجيج المسافرين فاسترخيت مستمتعة بسماع أصوات الناس وما كان يصلني من نتف أحاديثهم، ربما لساعة وأكثر، قبل أن أتنبه إلى أن عينيّ قاطع التذاكر كانت تنغرز بي وتراقبني نظراته بعدائية لم أفهم لها سبباً.

تجاهلت نظرات قاطع التذاكر وشغلت نفسي بمراقبة رواد المحطة وحتى ساعة وصول القطار، الذي تحول إلى عازل يحميني من سوط نظراته لأكثر من نصف ساعة، ولكن بعد نزول من وصل وصعود من سافر من أهل المدينة ومضي القطار في طريقه باتجاه العاصمة، عدت لمواجهة نظرات قاطع التذاكر، بطريقة أكثر حدة وأعمق أثراً، بسبب فراغ رصيف المحطة وهدوئها الموحش، بعد ذهاب الجميع. ولأن شعوري بتلك النظرات قد تعمق مع فراغ المحطة ولم يعد فيها ما ترصده غيري، تركت المحطة وعدت إلى البيت، من دون أن أنبه قاطع التذاكر إلى أني قد تنبهت لنظراته.

ولكن وبسبب الوحدة وتراكماتها عليّ، داومت على التردد على رصيف المحطة عصر كل يوم، حتى ألفتني عينا قاطع التذاكر أو نسيتني ربما، أو هكذا بدا لي. بل ومع توالي الأيام، وربما بسبب تزايد عدد المسافرين، في فصليّ الربيع والصيف، اقتنعت فعلاً أني انتظر عودة أخي المسافر وأنه لابد سينزل، ذات يوم، مع من ينزل من الواصلين في القطار المسائي، وإلى أن نزل شخص له هيئة وملامح أخي فعلاً، ذات مساء ساخن، فهببت دون تفكير لاحتضانه وتقبيله في أكثر من مكان من وجهه وجبينه، دون أن أنتبه إلى إنه كان يقف أمامي مذهولاً وعلامات الدهشة والاستغراب تملأ وجهه، إلى اللحظة التي تقدم فيها قاطع التذاكر، من وراء ظهري، ليرفع كفي عن خد ذلك الشاب ويبعدني عنه وليقول، وهو يومئ برأسه له بما يشبه الاعتذار: عندما تفكرين باصطياد رجل فأذهبي بعيداً عن محطتي، فالمحطة مؤسسة حكومية ورصيفها يجب ان يبقى نظيفاً وبكامل هيبته.

لهول ما سمعت من قاطع التذاكر والطريقة التي فكر بها في نواياي، لم أستطع الرد عليه بأي كلمة، بل أسرعت للهروب من أمامه وأنا أتعثر بخطواتي من الخجل الممزوج بالغضب.

في الجهة الثانية من بناية محطة القطار، وهي الجهة التي تطل على المدينة، كان الشاب الذي عانقت يصطف بين العشرات ممن وصلوا في قطار ذلك المساء، في انتظار الحصول على سيارة أجرة تقله إلى بيته أو المكان الذي يقصده.. كان وجهه خالياً من أي تعبير ونظرته لا تدلل على إنه كان يفكر بشيء فتساءلت: هل أنا قبيحة ومنفرة إلى حد أنه لم يتعاطف معي، كما يفعل معظم الرجال في مثل هذه المواقف عادة؟ أما كان بمقدوره أن يختلق عذراً لي ويصرف عني قسوة قاطع التذاكر؟ هل كانت مصادفة أن يتفق الاثنان على النظر إليّ بازدراء وشك في نواياي؟ هل يعقل أن تفعل الوحدة كل هذا بالإنسان؟

بعد عودتي إلى البيت، وفي مطبخي الواسع فتحت الثلاجة عدت مرات وأعدت اغلاقها. حاولت غسل الزجاجات التي أوزع بها حليب الماعز في السوق، دون أن أتمكن من التقدم من حوض الغسيل خطوة واحدة. كنت بحاجة لفعل شيء.. ما هو؟ أخذت مصباحي اليدوي وخرجت باتجاه حظيرة دجاجاتي، هل سأتمكن من عدهن وهن تحت سلطان العتمة؟ هل يساعد عد الدجاج في شيء، كالركض حد الانهاك مثلاً؟❑❑

النسخ في الوحي

❑ الأسطورة والتراث

سيد القمني
مصر

محاولة فهم

(١) تأسيس
قال الأئمة لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى، إلَّا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال عليٌّ (رضي الله عنه) لقاضٍ: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكت وأهلكت.

جلال الدين السيوطي١
عن ابن عباس في قول الله عز وجل وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا (البقرة: ٢٦٩)، قال المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ...

فمن المتأخرين من قال: ليس في كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ ... وهذا القول عظيم جدًّا، يئول إلى الكفر.

أبو جعفر النحاس٢
وأهمية معرفة النسخ تتضح مما يأتي: أولًا: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين ... جحدوا وقوع النسخ وهو واقع ... ثانيًا: إن الإلمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامي، ويطلع الإنسان على حكمة الله في تربيته للخلق، وسياسته للبشرية ... ثالثًا: إن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام، وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام ... فالمنكرون لوقوع النسخ في القرآن الكريم ... يخالفون صريح النص القرآني، والسنة النبوية الصحيحة وإجماع المسلمين.

د. شعبان محمد إسماعيل، وكيل الأزهر٣
لم تعد قضيتنا اليوم هي حماية تراثنا من الضياع ... إنها ليست القضية الأولى في هذه المرحلة التي وصل فيها التهديد إلى الوجود نفسه ... حيث أصبح موقفنا اليوم هو الدفاع عن وجودنا نفسه، بعد أن أفلح العدو أو كاد في اختراق الصفوف، في محاولة نهائية لإعادة تشكيل وعينا، أو بالأحرى في محاولة لسلبنا وعينا الحقيقي، ليزودنا عبر مؤسساته الثقافية والإعلامية بوعي زائف، يضمن استسلامنا النهائي لخططه، وتبعيتنا المطلقة له على جميع المستويات.

د. نصر حامد أبو زيد٤
(٢) ظاهرة النسخ في الوحي
تروي كتب التاريخ الإسلامية وكتب السير والأخبار أن النبي ﷺ في المراحل الأولى من دعوته في مكة، وبعد أن هاجر بعض أتباعه إلى الحبشة، ورأى تجنب قريش له، وأنه في نفر قليل من أصحابه استشعر الوحشة فتمنى قائلًا: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (النجم: ١٩-٢٠). كما يُروى أنه قرأ سورة النجم في المسجد الحرام أمام سادات قريش، ومعه بعض أتباعه يصلون معه، ولما وصل إلى الآيات أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (النجم: ١٩-٢٠)، يُروى أنه استمر يقول: «تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى.» مما أدى إلى صدًى واسع النطاق، إذ أعلنت قريش رضاها عن محمد ﷺ وعما تلا من آيات، وقالت: «بلى؛ لقد عرفنا أن الله يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، لكن هذه تشفع لنا عنده، وإذا جعلت لها نصيبًا، فنحن معك» ... ويذكر «الطبري» أن «المؤمنين صدقوا نبيهم فيما جاءهم عن ربهم ... فلما انتهى إلى السجدة، سجد المسلمون بسجود نبيهم، تصديقًا لما جاء به واتباعًا لأمره، وسجد من سجد من المشركين وغيرهم، لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبقَ في المسجد مؤمن ولا كافر إلَّا وسجد.»٥ وروى البخاري عن ابن عباس قوله: إن رجلًا واحدًا لم يسجد لكبر سنه ووهن عظمه، «إلَّا رجلًا رأيته يأخذ كفًا من تراب فيسجد عليه.»٦ وقد سمى الواقدي هذا الرجل بالاسم في قوله: «فسجد المشركون كلهم إلَّا الوليد بن المغيرة، فإنه أخذ ترابًا من الأرض فرفعه إلى وجهه.»٧ ومعلوم أن «الوليد» كان من أشد الناس على النبي ﷺ، كما كان من ذوي الثراء بين وجهاء مكة وأشرافها، ولا شك أن موقفه هنا بحاجة إلى بعض التأمل.

وتتابع الروايات حكايتها، فتقول: إنه كان لتلك القصة المعروفة في التراث الإسلامي بحديث الغرانيق، صدًى واسع، حتى إنه وصل إلى مسامع المسلمين المهاجرين لدى نجاشي الحبشة، فقفلوا من مهجرهم راجعين بعد أن انتفى سبب اغترابهم. لكن هؤلاء التقوا في طريق عودتهم بركب من كنانة، أخبروهم أن النبي ﷺ ذكر شفعاء قريش بخير فتابعوه، لدرجة أنهم صلوا صلاته، ثم ارتد عنها فعادوا لمعاداته، فبعد أن قال «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى.» عاد يقول: إن جبريل جاءه وعاتبه قائلًا: «ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به من الله عز وجل، وقلت ما لم يقل.» ثم تلا أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (النجم: ١٩–٢٢).٨

وقد عقب القدامى والمحدثون على حديث الغرانيق لنفيه، واستهجانًا له، وللإيجاز يقول «د. شعبان محمد إسماعيل» من المحدثين: «وهذه القصة غير ثابتة لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل.»٩ ومن القدامى «أبو جعفر النحاس» الذي هاله أمرها، فقام يعلن أن «هذا حديث مفظع وفيه هذا الأمر العظيم.»١٠ وقدَّم محقق كتابه لذلك بحجة منطقية تمامًا، وهي «أنه لو أجزنا ذلك، لذهبت الثقة بالأنبياء، ولوجد المارقون سبيلًا للتشكيك في الدين.»١١ ثم أردف بما جاء عند «الواقدي» وهو يقول: حتى نزل جبريل فقرأ عليه النبي هذا، فقال له: ما جئتك به! وأنزل الله: لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (الإسراء: ٧٤).١٢

والآية المشار إليها، لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا جاءت في عتب الله تعالى على نبيه الكريم ﷺ، في الآيات وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (الإسراء: ٧٣، ٧٤)، ثم نجد تبريرًا قرآنيًّا لما حدث، لا مجال فيه لخلط أو لبس، يوضح أن الشيطان لعنه الله، انتهز فرصة تمني النبي القرب من قومه، فتدخل في الوحي إبان تلقيه، وألقى إليه بتلك الآيات الفظيعة، فنسخها تعالى بالآيات الصادقة. ويعلمنا الله تعالى أن ذلك ليس أمرًا جديدًا ولا غريبًا، فقد كان الشيطان يفعلها مع أي نبي من الأنبياء والرسل «المكرمين» إذا تمنى أحدهم الأمنية نفسها أو مثلها، وقد جاء هذا الإيضاح المبين في قوله جل وعلا: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ (الحج: ٥٢).

ويعقب أبو جعفر النحاس الذي استفظع الأمر على تلك الآيات، فيؤكد أنه حتى لو كان حديث الغرانيق قد حدث، وأن الشيطان وجد الفرصة في التمني، فإن النبي لم ينطق بما ألقى الشيطان، أو كما قال: «... فيكون التقدير على هذا: ألقى الشيطان في تلاوة النبي ﷺ إما شيطان من الجن، ومعروف في الآثار أن الشيطان كان يظهر في كثير وقت النبي ﷺ، فألقى هذا في تلاوة النبي ﷺ من غير أن ينطق به النبي ﷺ.»١٣ ومن هنا يحتمل أن يكون مناط احتجاجه ما جاء في آيات أخرى تقول: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (النحل: ٩٨–١٠٠).

هذا ما كان من أمر حديث الغرانيق، وما كان من إيضاحات القرآن الكريم لما حدث، ولكن ما يعنينا ونهتم به ويدخل في إطار بحوثنا، بعيدًا عن بحوث الدين نفسه، التي لها ميدانها وفرسانها، هو قراءة الواقع الذي حدثت فيه الحادثة، ومعرفة الظروف التي لابستها. لنفهم كيف كان القصد من الأمر فتنة قوم في قلوبهم مرض، وكيف قست قلوب آخرين فتم اختبارهم وفرزهم، وبالإطلال على تلك الفترة الزمكانية نرى الواقع لم يفرز بعد عددًا من الحواجز بين النبي وقومه، لكن كانت هناك حواجز قد قامت بالفعل، كانت من وجهة نظر المشركين هي الحواجز الأساسية والحاسمة. والمعلوم أن قريشًا لم تكن تختلف مع المصطفى ﷺ حول المسألة العقدية الأولى لدعوته، وهي الإيمان بإله واحد يحيي ويميت يخلق ويرزق، ومصدر علمنا بذلك من القرآن الكريم نفسه، والذي شهد لهم بذلك في عدد من الآيات المكرمة، ومن تلك الآيات وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(العنكبوت: ٦١)، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (المؤمنون: ٨٦)، وغير تلك الآيات بالمعنى نفسه كثير. لكن وجه الخلاف، والحاجز الكبير، كان يتمثل في دعوة النبي ﷺ لإسقاط شفاعة الشفعاء من أرباب قريش الممثلين في تماثيل، إذ اعتقد الجاهليون أن أسلافهم، وبالذات من كان منهم صالحًا أو متميزًا بفعله، قد اقترب من الله الواحد رب السموات والأرض واكتسب رضاه؛ ومِن ثَمَّ يمكن أن يكون ذا قول مقبول عنده، فقاموا يبنون للأسلاف الصالحين المحاريب، وينحتون لهم التماثيل، إضافة إلى بعض التماثيل المستوردة، بغرض اتخاذهم شفعاء إلى الله مقبولي الدعاء، وبحبسان الإنسان بخطاياه بعيدًا عن الله تعالى، وأن ما يحمله من أوزار يجعله بمنأى عن القرب من الإله العظيم. ومن هنا اتخذت كل قبيلة لها شفيعًا من أسلافها، يقوم بنقل نجواهم ومطالبهم للإله رب الكون، وعادة ما كان ذلك الشفيع هو سيد القبيلة الراحل ورمزها وعلمها وضامن وحدتها وتضامنها، حتى ذابت فيه القبيلة، ولم تعد تقبل سواه سيدًا وربًّا وشفيعًا، وهو الأمر الذي ساعد على زيادة الفرقة القبلية، نتيجة اعتزاز كل قبيلة بنسبها إلى ذلك السيد الشفيع، وهكذا كانت دعوة النبي ﷺ إلى إسقاط الشفعاء، إنما تعني إسقاط الأطر القبلية، بل وتفجيرها تمامًا، من أجل توحد أكبر لكل القبائل، وهو ما كانت ترفضه الأعراف القبلية وتنفر منه.

ومن جانب آخر نجد دعوة النبي ﷺ تتوافق توافقًا رائعًا مع ما تهيأ الواقع لإفرازه بالفعل، رغم إصرار البعض الكثير على الشكل القبلي التقليدي، فالواقع كان يسعى حثيثًا لإسقاط الحواجز القبلية نتيجة لتغايرات في البنى الاجتماعية، والأشكال الاقتصادية، بعد أن تحولت قريش من مجرد محطة ترانزيت على الطريق التجاري، إلى مقر للمسيطرين على تجارة العالم، بحيث وجدنا الظروف تنبت ألونًا من الأرستقراطية التجارية، خلقت وضعًا جديدًا لم يكن مألوفًا في النظام القبلي، وهو التباين الطبقي الهائل، الذي أدى بالضرورة إلى بروز أشخاص بأنفسهم داخل كل قبيلة، يتميزون بثروتهم الكبيرة، بل والمبالغ فيها، وهو الأمر الذي أدى لانزياح الانتماء القبلي لدى هؤلاء جانبًا، إزاء التقاء مصالحهم الاقتصادية مع مصالح آخرين في قبائل أخرى، وبحيث تحول الانتماء عن القبيلة وسيدها، إلى الانتماء لشريحة اجتماعية ومصالح اقتصادية، تجمع بين أثرياء القبائل على تفرقها، وهو الأمر نفسه الذي حدث على الجانب الآخر بين فقراء القبائل المختلفة، بحيث زاد النزوع لدى الطبقتين نحو التوحد تحت راية إله يضمن للتجار مصالحهم، أو تحت راية إله يدافع للمستضعفين عن قضيتهم، فكان التيار المتدفق نحو رب للجميع على مستوى التجار، ورب للجميع على مستوى المدقعين من فقراء القبائل، وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور تجمعات صغيرة، من الخلعاء والصعاليك من بين الطبقة المستضعفة من قبائل مختلفة، وإلى ظهور تحالفات الكبار وتحالفات الفقراء، في الظاهرة المعلومة باسم ظاهرة الأحلاف (حلف الفضول، حلف المطيبين، لعقة الدم، حلف الأحلاف ... إلخ).

وهكذا بدأ الواقع يبتعد بناسه عن السلف، أو الرب القبلي الذي لم يعد يعني في حساب المصالح شيئًا، لكن كان الإبقاء عليها في حساب التطور الاجتماعي مجرد مرحلة، إذ كان الرب الشفيع لا زال يضمن ببقائه، الوضع السيادي المستقل لكل قبيلة، وهو ما كان يحرص عليه الأرستقراطيون تحديدًا حماية للمصالح الفردية، فهم وإن ائتلفوا طبقيًّا على اختلاف قبائلهم، فقد كانت المنافسة التجارية عاملًا في استمرارية الأوضاع القبلية، منعًا للسقوط في المنافسة، بالاستناد إلى قوة القبيلة كوحدة عسكرية مقاتلة. ومن هنا، ورغم دفع الواقع للأحداث في طريقها الضروري والمنطقي، فقد حرص كل فرد في الشريحة الأرستقراطية على إدامة سيادة الشفعاء ما أمكن، لما تمثله سيادة الشفيع من سيادة شخصية له، لا تؤدي إلى سقوطه في حلبة المنافسة، ولا إلى ذوبانها أمام الملكيات الأكبر لرءوس الأموال في القبائل الأخرى.

وهكذا نجد المرحلة تحمل جنين التطور الآتي، تفصح عنه الأحلاف، والتقارب في المصالح على اختلاف القبائل، لكن مع الحرص على سيادة شفيع القبيلة الذي هو ربها وسيدها ورمز قوتها وتماسكها، حتى تماهى السيد الأرستقراطي مع السيد الشفيع، بعد أن أمد الأرستقراطيون كهان الأرباب الشفعاء بعطاياهم وأموالهم؛ لينطق الأرباب بما يوافق مصالح الأغنياء؛ لتصبح كلمة الشفيع هي كلمة السيد التاجر.

وهكذا، كان معنى أن يلغي محمد ﷺ الشفعاء، هو إلغاء الحاجز الأخير بين القبائل وبعضها، وإسقاط الرمز القوي السيادي المتماهي مع السيد الأرستقراطي. هذا ناهيك عن نظرتهم إلى النبي ﷺ بحسبانه يسعى إلى إلغاء سادة القبائل من شفعاء، ليصبح هو السيد الأوحد لكل القبائل، لتنتقل له وحده الشفاعة، من حيث كونه صاحب العلاقة مع الله وليس الشفعاء ولا الكهان ولا التجار، أي صاحب القرار القاطع والنهائي الناطق باسم الله، وذلك عبر الشهادة له بأنه رسول الله، هو ما يتهدد مصالحهم التجارية جميعًا بالدمار.
وفي ظل ذلك الوضع يمكن قراءة حديث الغرانيق مرة أخرى، ففي تلك الظروف، ومع مهاجرة الأتباع للحبشة، ومع قسوة الواقع ومرارته، ومع الغربة وسط الأهل، ومع الظرف النفسي الذي لا بد تركته تلك الأوضاع في النبي ﷺ، تمنى، فتدخل الشيطان، فقال، فتبعته قريش وخاصة سادتها الذين تواجدوا تلك اللحظة بالحرم؛ لأنه هكذا لن يمس الأمر مصالحهم، فسجدوا بسجود النبي ﷺ، وصلوا معه صلاته. وهنا كانت الفتنة المقصودة بقول الآيات لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ (الحج: ٥٣). والقلوب كانت آنذاك بمعنى العقول، أي الذين لا يفقهون ولا يدركون المرامي البعيدة لدعوة النبي ﷺ، تلك المرامي التي سبق أن أدركها العقلاء منهم رغم عدم إيمانهم، وأفادوهم بها، وشرحوها لهم، وهو ما لمسناه في قول «عتبة بن ربيعة» لهم بعد أن التقى النبي ﷺ، وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة، «يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.»١٤ ولا شك أن «عتبة بن ربيعة»، وهو أحد الأرستقراطيين الكبار، قد أدرك الأبعاد الكبرى للدعوة والتي كانت تبغي توحيدهم جميعًا في دولة كبرى تناجز الروم والعجم، دون إضرار بمصالحهم التجارية، وهو ما حدث بعد ذلك بالفعل. بل، وبعد انتصار الدعوة تم تمكين هذه المصالح وتقويتها ودعمها، فالنبي بعد فتح مكة لم يضمن للمكيين مكانتهم بين العرب فقط، بل ضمن لقريش ولزعامتها مركزهما في الإسلام. والناظر لفتح مكة بقليل من وضوح الرؤية، يكتشف أن فتح مكة لم يكن هزيمة لقريش، وهو الأمر الذي نلاحظه في تذمر الأنصار، ثم بعد ذلك عمل النبي ﷺ بنفسه على تكريس الوضع الاجتماعي القائم، عن طريق الأعطيات والإقطاعات. ثم دعم الوحي ذلك بتكريس الملكية الفردية وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ (النحل: ٧١)، بل قدم عقلنة واضحة للتفاوت الطبقي كما في قوله تعالى: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (النحل: ٧٥)، ناهيك عن إعادة سر التفاوت الطبقي إلى التقدير الإلهي في قوله: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ (الأنعام: ١٦٥).

لكن كان واضحًا أن الأمر بهذا المعنى لم يصل إلى أذهان الأرستقراطيين المكيين في ظل دعوة الإسلام الأولى للمستضعفين، فكانت فتنتهم بحديث الغرانيق، لكنَّ توتر بعض المسلمين نتيجة ما ألقى الشيطان، وتضعضع أحوالهم المعنوية، كان لا بد أن تتبعه العودة السريعة بإيضاح دور الشيطان فيما حدث، والذي كان أيضًا اختبارًا للمسلمين المستضعفين لإظهار مقدار الطاعة، ومدى مسارعتهم إليها، مسارعة إسماعيل إلى الذبح طاعة للأمر الإلهي. وعليه فقد جاء النسخ لما ألقى الشيطان في الوحي، عملًا إجرائيًّا كانت أطرافه الاعتبارية: القبلية في جانب والوحدة المرتقبة في جانب آخر، وأطرافه الشخوصية هي: أهل مكة في جانب، والنبي ﷺ في جانب، بينما كانت أدوات هذا الجدل هي الشفعاء، والشيطان، وكلمات الله التي تمثلت في وحي لا كالإلهام، ولا كالخاطر، ولا كالهاجس، لكنه الوحي الصادق الذي أدى دورًا غني الدلالة، ويشير بدون إبهام إلى صدوره عن فاعل واعٍ مريد. كان الوحي هنا فعلًا شعوريًّا يتسم بالإدراك والوعي التامين لما يحدث، ولشكل الاستجابة المطلوبة بحسب شروط الواقع وضروراته، كان وعيًا بطبيعة المرحلة الآنية آنذاك، وبطبيعة المرحلة المقبلة وما سيلحقها من تحولات، لكن يثور هنا السؤال: كيف يتحول الوحي ويتبدل؟ وهل يمس ذلك قدسية كلمة الله الثابتة؟ وهذا ما دعا بعد ذلك إلى نشوء مبحث مهم وكبير من مباحث علوم القرآن، هو «الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم»، وهو الظاهرة التي لحظها القرشيون حتى قالوا: «ألا ترون إلى محمد، يأتي أصحابه بأمر ثم ينهاهم ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولًا يرجع عنه غدًا؟» وهي المقالة نفسها التي قالها اليهود اليثاربة بعد الهجرة، عندما تحول النبي ﷺ بالمسلمين في الصلاة عن بيت المقدس إلى كعبة مكة.١٥ كان ذلك التحول والتبدل مدعاة لرد الآيات الكريمة: وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (النحل: ١٠١). والمعنى أن هناك آيات تم استبدالها بأخرى، مع إشارة واضحة إلى احتساب المشركين لذلك التبديل افتراءً من النبي ﷺ على الله جل وعلا، والله منه بريء. إلا أن الآيات أوضحت بلا إبهام أن مَن يرفضون منطق الاستبدال والتحول «أكثرهم لا يعلمون»، وهو ما دعمته الآيات بقولها: يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ (الرعد: ٣٩). وهو ما يشير ليس فقط إلى الاستبدال، بل إلى محو آيات بعينها، ثم بقولها مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (البقرة: ١٠٦).

وقد جاء عن ابن عباس من تفسير الآية يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ (الرعد: ٣٩) أن الله يبدل ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، وما يبدل وما يثبت إلَّا في كتاب. وعن «قتادة» عن عكرمة قال: «إن الله ينسخ الآيات بالآية، فترفع وعنده أم الكتاب، أي أصل الكتاب.» وعن «قتادة» أيضًا في شرح الآية مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ (آل عمران: ٧)، قال: «المحكمات هي الآيات الناسخة التي يعمل بها.»١٦ مما يشير إلى غير المحكمات التي لا يعمل بها، على ذمة «قتادة». وإزاء القول بأن الآيات، المنسوخ منها والناسخ، المعلوم لدينا أو المجهول — لنسخه أو محوه — إنما في كتاب أزلي محفوظ هو أم الكتاب، يقول د. نصر أبو زيد: «النسخ هو إبطال الحكم وإلغاؤه، سواء ارتبط الإلغاء بمحو النص الدال على الحكم ورفعه من التلاوة، أو ظل النص موجودًا

دالًّا على الحكم المنسوخ، لكن ظاهرة النسخ تثير في وجه الفكر الديني السائد المستقر إشكاليتين يتحاشى مناقشتهما، الإشكالية الأولى: كيف يمكن التوفيق بين هذه الظاهرة بما يترتب عليها من تعديل للنص بالنسخ والإلغاء، وبين الإيمان الذي شاع واستقر بوجود أزلي للنص في اللوح المحفوظ. والإشكالية الثانية ... هي إشكالية جمع القرآن ... ومشكلة الجمع ما يورده علماء القرآن من أمثلة قد توهم أن بعض أجزاء النص قد نُسيت من الذاكرة الإنسانية ... ولم يناقش العلماء ما تؤدي إليه ظاهرة نسخ التلاوة، أو حذف النصوص، سواء أبقي حكمها أم نُسخ أيضًا، من قضاء كامل على تصورهم الذي سبقت الإشارة إليه لأزلية الوجود الكتابي للنص في اللوح المحفوظ ... فإن نزول الآيات المثبتة في اللوح المحفوظ ثم نسخها وإزالتها من القرآن المتلو، ينفي هذه الأبدية المفترضة الموهومة ... فإذا أضفنا إلى ذلك المرويات الكثيرة عن سقوط أجزاء من القرآن ونسيانها من ذاكرة المسلمين، ازدادت حدة المشكلة ... والذي لا شك فيه أيضًا، أن فهم قضية النسخ عن القدماء لا يؤدي فقط إلى معارضة تصورهم الأسطوري للوجود الأزلي للنص، بل يؤدي أيضًا إلى القضاء على مفهوم النص نفسه.»١٧

لكن رغم أهمية هذه الرؤية وعلميتها، التي تحرص على الالتزام بمنهج الدراسة العلمية وشروطه، كما تحرص في الوقت نفسه على النص ومفهومه، فقد كان واضحًا أنها سقطت في شراك المنظومات القديمة وقوالبها الجاهزة، فتشابكت معها. رغم ما أبداه الأستاذ الدكتور من حذر وتحذير من سيطرة مثل تلك المنظومات والقوالب على الباحث، في مقدمة كتابه المذكور، ورغم حرصه الشديد على التعامل مع النص القرآني كنص أدبي، ورغم إشارته إلى ارتباط هذا النص بواقع جزيرة العرب زمن تواتر ذلك النص وحيًا. إلا أن تلك الإشارة لم تفصح عمليًّا عن نفسها بشكل واضح وجلي في موضوعه عن النسخ. وإزاء تشابك تلك الرؤية مع القوالب القديمة، فإن الأستاذ الدكتور لم يمد الخيط إلى طرفه الأخير، أو بالأحرى إلى الحدود الممكنة وكانت متاحة، لولا أنه سلَّم مقدمًا بالتقسيم التقليدي لظاهرة النسخ في القرآن الكريم. أقصد اللوحة الثلاثية التي تقول: إن هناك أولًا ما نُسخ حكمه وبقيت تلاوته، بمعنى أن هناك آيات في الكتاب الكريم قائمة بلفظها، وإن بطل العمل بحكمها، بموجب آيات أخرى جاءت بحكم جديد نسخ الآيات القديمة. وثانيًا ما نُسخت تلاوته وبقي حكمه، بمعنى أن هناك آيات كانت معروفة في حياة النبي ﷺ ويعمل بحكمها، لكن في ظروف بعينها تم نسخ تلاوتها أي لفظها أو نصها، بينما بقي حكمها معمولًا به بعد وفاة النبي ﷺ، وهي الحالة التي تجد نموذجها الأمثل في حكم الرجم على الزاني والزانية إذا ما أحصن (أي إذا كان متزوجًا).

أما الحالة الثالثة فهي ما نسخ حكمه وتلاوته معًا، فلم يعد له وجود بين آيات القرآن الكريم، ولم يعد يعمل بحكمه أيضًا. هذا بينما نجد — بنظرة مدققة — فيما جاء من أخبار، ما يفيد أن هناك أحداثًا وظروفًا جدت، فتفاعل معها الوحي، إضافة إلى أحداث جدت بعد الوحي، وذلك إبان عملية جمع القرآن، بحيث أدى هذا كله في النهاية إلى القرآن النهائي الموجود بين أيدينا الآن (المصحف العثماني نسبة إلى عثمان بن عفان). ولم يأخذ المجتهدون في التعامل مع ظاهرة النسخ تلك الأحداث والظروف بحساباتهم، رغم إشارتهم لها، وذلك نتيجة الإصرار على التعامل مع القرآن الكريم كنص أزلي الوجود، مما انتهى بهم إلى تقسيم اللوحة الثلاثية. ومن هنا سنحاول فهم واقع الحال مرة أخرى، مرتبطًا بمراحل تواتر الوحي، ومن خلال الإشارات والشذرات والشهادات التي قدمها علماؤنا القدامى، والتي تشير إلى ما حدث خلال ثلاثة وعشرين عامًا، استغرقها تواتر الوحي القرآني، وكانت كفيلة بالتعامل معه كنص تاريخي، إضافة لكونه نصًّا عقديًّا وأدبيًّا.

ولقد كان تواتر الوحي خلال تلك الفترة الزمنية، مفرَّقًا ومنجمًا، تواصلًا مستمرًّا مع الواقع آنذاك، وتفاعلًا مع المستحدثات الظروفية، وهو ما كان معترض المشركين الأساس، والذي سجلته الآيات الكريمة في قولها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (الفرقان: ٣٢). وهي حجة تتسق مع الرؤية المثالية لمفهوم الألوهية ومفهوم النبوة، إذ يتسم فيها الله بالثبات المطلق، وبحيث تثبت كلماته دفعة واحدة، فلا تتبدل ولا تتغير، بحسبان كلام الله ثابتًا ثبات ذاته. وهي الرؤية نفسها التي استندت إليها قراءة السالفين من علماء المسلمين في الكتاب الكريم، دون أن يلتفتوا إلى أن ذلك يمكن — بالفعل — أن يدمر مفهوم النص نفسه، بحسب ما نبه إليه (د. نصر أبو زيد). هذا بينما، كانت سيولة القرآن الكريم، وتدفقه على مراحل حسب المناسبة والظروف، مطابقة مستمرة ودائمة بالمتغير الموضوعي، بحيث لم يُترك النبي وبين يديه نص أولى أزلي واحد، يواجه به الواقع الذي لا يتوقف عن التغاير، ومن هنا استكملت الآيات إيضاحها في قولها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (الفرقان: ٣٢).

لقد تحولت النبوة عن نهج الإبهار بالإعجاز الساحر، فلم تأخذ بعصا سحرية تفعل الأعاجيب، ولا بتمتمات تحيي الموتى، وإنما أصبحت فرزًا صادقًا يتطابق مع واقعها الزمكاني، وهو ما جعل الوحي بالنسبة للنبي محمد ﷺ يختلف عن الوحي الإيهامي والإلهامي. لقد تحول باليقين إلى الواقع ليتفاعل معه، يقرأ الواقع، ويجيب عن أسئلته، ويسهم في حل إشكالياته، يرتبط بالأرض ومصالح ناسها ومطالبهم، بحسبان الناس، وليس السماء، هم هدفه الرئيسي؛ بحيث أصبح الناس المتغيرون بتغير أحداث الواقع عنصرًا أساسيًّا في مجيء الوحي مفرقًا وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (الإسراء: ١٠٦).

وإعمالًا لما سبق، ولأن عمل «د. نصر» بحساباتنا عمل رائد حقًّا، فقد رأينا دفع الموقف حول اللوحة الثلاثية، ليس تسليمًا بها، إنما لبيان الأسباب التي أدت إلى كل حالة من حالات تلك القسمة الثلاثية.

(٣) ما نُسخت تلاوته وبقي حكمه

عن مالك بن أنس عن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس، عما حدث في خلافة عمر، قال: «جلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذن، قام فأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإني قائل مقالة قد قدر لي أن أقولها، ولا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن وعاها وعقلها فليحدث بها حيث انتهت راحلته، ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب على الله عز وجل: بعث الله محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناه ووعيناها وعقلناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق، على من زنى إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف، ألا إنا كنا نقرأ: لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم.»١٨

وفي رواية عُيينة عن الزهري: «وايم الله لولا أن يقول قائل: زاد عمر في كتاب الله، لكتبتها.» وعن يحيى عن سعيد بن المسيب، أن عمر بن الخطاب قال: «أيها الناس، قد سُنت لكم السنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتركتكم على الواضحة، ألا تضلوا بالناس، يمينًا أو شمالًا، وآية الرجم لا تضلوا عنها، فإن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا، وإنها نزلت وقرأناها: الشيخ والشيخة إذا زنيا، فارجموهما البتة. ولولا أن يقال: زاد عمر في كتاب الله، لكتبتها بيدي.» وفي رواية «زر» أن الآية كانت «إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة، نكالًا من الله والله عزيز حكيم.»١٩ وعن أبي أمامة بن سهل أن خالته قالت: «لقد أقرأنا رسول الله آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا اللذة.»٢٠

وروى الزهري عن عبد الله بن عباس قال: «خطبنا عمر بن الخطاب قال: كنا نقرأ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة ... قال: ولولا أني أكره أن يقال زاد عمر في القرآن لزدته.»٢١

لدينا هنا حالة واضحة جلية لإحدى الحالات التي تم تصنيفها ضمن المنسوخ في القرآن الكريم، وتحديدًا ضمن «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه»، وقد أخذ «جلال الدين السيوطي» بتبرير لذلك الأمر يقول: «أجاب صاحب الفنون، أن ذلك ليظهر مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس، بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به، فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام.»٢٢ وربما ذهب الفقهاء إلى أن الحالة الموجودة هنا «الشيخ والشيخة ... إلخ» من نوع «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه»، استنادًا إلى مقالة عمر بن الخطاب، وتواتر معنى الآية المنسوخة بين الرواة (وإن تبدل لفظها لقدم العهد ولعدم تدوينها في القرآن المجموع) وإلى كون حكم الرجم قد عُمل به أيام الرسول ﷺ ومن بعده.

لكن لدينا بالقرآن الكريم بشأن حكم الزنى الآيات وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا (النساء: ١٥-١٦)، هذا إضافة لآية الجلد الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ (النور: ٢)، ومع ذلك، فقد ذهب العلماء إلى الاتفاق على نسخ حكم الآيات وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ... رغم تدوينها في القرآن الكريم، واحتسبوها مما نُسخ حكمه وبقيت تلاوته، بينما أبقوا على حكم آيات غير موجودة في كتاب الله المجموع بين أيدينا (الشيخ والشيخة ...) باحتسابها مما نُسخت تلاوته وبقي حكمه. فأثبتوا حكم الرجم استنادًا إلى أحاديث نبوية، تدخل في أصول الفقه فيما يذهبون وذلك بالنسبة لمن يحصن، مع إثبات حكم الجلد لمن لم يحصن. ويجمل أبو جعفر النحاس موقف العلماء بهذا الشأن في قوله: «فمنهم من قال: كان حكم الزاني والزانية إذا زنيا وكان ثيبين أو بكرين، أن يحبس كل واحد منهما في بيت حتى يموت، ثم نُسخ هذا بالآية الأخرى وهي: وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا (النساء: ١٦) فصار حكمها أن يؤذيا بالسب والتعيير، ثم نسخ ذلك فصار حكم البكر من الرجال والنساء أن يجلد مائة ويرجم حتى يموت ... والقول الثاني: إنه إذا كان

حكم الزاني والزانية إذا زنيا أن يحبسا حتى يموتا، وحكم البكرين يؤذيا ... والقول الثالث، أن يكون عز وجل قال: واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم، عامًّا لكل من زنت من ثيب وبكر، وهذا قول مجاهد، وهو مروي عن ابن عباس، وهو أصح الأقوال.»٢٣ وإذا كان القول الثالث عند النحاس هو أصح الأقوال، وهو بالفعل الأرجح في منطوق الآيات وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ (النساء: ١٥)، وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ (النساء: ١٦)، فقد كان يعني أن الآيات جعلت للزناة من الرجال حكمًا يختلف عن حكم الزناة من النساء، ثم لما كانت آية الرجم، انتهى الأمر في بعض الأحيان إلى محاولة تطبيق الحدود على اختلافها، في محاولة لتحاشي الإثم في التطبيق. وربما كان ذلك ما دفع «علي بن أبي طالب رضي الله عنه» لجلد «سراحة» مائة، ثم رجمها بعد جلدها، وتعقيبه التبريري «جلدتها بكتاب الله عز وجل، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ».٢٤ هذا بينما ذهب جماعة العلماء إلى أن حكم الثيب الزانية الرجم بلا جلد، واحتجوا بأن الجلد منسوخ عن المحصن بالرجم،٢٥ وهذا بدوره يستند إلى السنة في قول ابن عباس: «قال رسول الله ﷺ لماعز بن مالك: أحق ما بلغني أنك وقعت على جارية بني فلان؟ قال: نعم، فشهد أربع شهادات، ثم أمر به فرجم.»٢٦ كذلك قوله ﷺ: «اغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت بالزنا فارجمها.» ولم يذكر الجلد، فدل ذلك على نسخه، فيما يذهب إليه قول أبي جعفر النحاس.٢٧

وتبقى محاولة فهم ما فرضه واقع الحال بشأن نسخ تلاوة «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ... إلخ»، لكن مع بقاء حكم الرجم قائمًا، دون سند في آيات القرآن المجموع بين أيدينا، والأسباب التي دعت إلى وضع باب للنسخ عرف بـ «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه»، لإدراجها ضمنه. والمعلوم أنه إذا نسخت آية من الآيات الكريمة، كان لا بد من آية أخرى بديلة تحل محلها، تحمل الحكم الجديد، وذلك حسب نص الآيات مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (البقرة: ١٠٦). والمعلوم أيضًا أن لدينا في آيات القرآن الكريم الحكم المذكور في الآيات «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم ...» وحكمها الحبس للنساء حتى الموت، أو حتى يجعل الله للمحكوم عليه فرجًا، والإيذاء بالسب والتعيير للرجال، وذلك حسب التقديرات المرجحة لقراءة الآيات. ثم لدينا الآية «الزانية والزاني ...» وحكمها الجلد مائة جلدة، لكن وضع باب «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه» أبقى آية الرجم قائمة بحكمها، بحيث أصبحت ناسخة لحكم الحبس والإيذاء، واستمرت إلى جوار حكم الجلد، وانتهى الأمر إلى تصنيف آية الرجم للمحصن، وآية الجلد لغير المحصن.

وقد قدَّم السيوطي تفسيرًا لنسخ تلاوة آية الرجم بقوله: «إن سبب التخفيف على الأمة بعدم اشتهار تلاوتها وكتابتها في المصحف وإن كان حكمها باقيًا لأنه أثقل الأحكام وأشدها، وأغلظ الحدود.»٢٨ وعليه فالسيوطي يطرح تأويله لنسخ التلاوة لأن الحكم في الآية هو أشد الأحكام وحكمها أغلظ الحدود، لكن الغريب أنه يقول ما قال سلفه من العلماء وهو «أن حكمها باقٍ»! فإذا كانت العبرة من النسخ هي غلظ الحد وقسوته أفلا يكون نسخ الحكم بدوره هو الأكثر منطقية؟

ثم شذرة أخرى تشير إلى دور الواقع فيما حدث بشأنه آية الرجم، تقول إن «أُبي بن كعب» وقف يُذكِّر «عمر بن الخطاب» بما حدث بشأن آية الرجم، التي أصر عمر على استمرار العمل بحكمها بعد رسول الله ﷺ، فيقول له: «أليس أتيتني وأنا أستقرئها رسول الله ﷺ (أي أستأذنه في كتابتها)، فدفعت في صدري وقلت: تستقرئه آية الرجم، وهم يتسافدون تسافد الحمر.»٢٩ هذا بينما أوضح «ابن حجر» ما ليس فيه لبس بقوله: «وفيه إشارة إلى بيان السبب في رفع تلاوتها، وهو الاختلاف.» مع ملاحظة استخدام «ابن حجر» اصطلاح «رفع» بدلًا من «نسخ». أما «ابن الحصار» فقد وقف يتساءل دهشًا إزاء القول بنسخها مع الاستمرار في العمل بحكمها، مع وجود آيات أخرى يمكن احتسابها ناسخة لها، لكنها لم تحتسب كذلك، فيقول: «كيف يقع النسخ إلى غير بدل، وقد قال تعالى: مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (البقرة: ١٠٦).»٣٠

والغريب أن «عمر بن الخطاب» نفسه قد قال بشأن آية الرجم: «لما نزلت أتيت النبي ﷺ فقلت: أكتبها؟ فكأنه كره ذلك! فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جُلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم؟» وهي ذات الحجة التي ساقها بعد ذلك «زيد بن ثابت»، الذي كتب المصحف المجموع بأمر الخليفة «عثمان بن عفان»، عندما سأله «مروان بن الحكم»: «ألا تكتبها في المصحف؟ قال: ألا ترى أن الشابين الثيبين لا يرجمان.»٣١

ومن هذه الإشارات، نرى «ابن حجر» عندما يستخدم اصطلاح «رفع» بدلًا من «نسخ»، يشير إلى عدم قناعته، بأن اختفاء آية الرجم من القرآن الكريم، لا يعني تصنيفها ضمن المنسوخ. فاستخدم اصطلاح «رفع»، إزاء وقائع تقول إنها لم تكتب أصلًا حتى في زمن المصطفى ﷺ، فقد كره أن يسمح لعمر بكتابتها، كما في قول «عمر»، وأن «عمر» كان من أول المعترضين على تدوينها، فدفع في صدر «أُبي بن كعب» مشيرًا إلى تفشي التسافد بين الناس كتسافد الحمر، والمرجح أن كتابتها كانت تعني ابتعاد الناس وهم على تلك الحال عن الإسلام، لشدة الحكم وغلظته؛ ومِن ثَمَّ كان لتلك الظروف والحجج دور واضح لعدم وجود أي تدوين لآية «الشيخ والشيخة إذا زنيا» في أي من الرقاع والصحف، بحيث ظلت غير مدونة حتى زمن التدوين العثماني، إذ استبعدها «زيد بن ثابت» بدوره كما في روايته مع «مروان بن الحكم»، فجاء المصحف العثماني خلوًا منها. لكن الإصرار على العمل بحكمها، كان فيما يبدو، مدعاة لنشوء باب «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه»، لتندرج ضمنه، وبذلك لم يعد حكم الجلد بديلًا لحكمها، وبحيث بدا الأمر غير منطقي في رأي «ابن الحصار». هذا بينما وقف «د. نصر أبو زيد» يلح في التنبيه، على أن «المهم في تحديد الناسخ من المنسوخ، هو ترتيب النزول لا ترتيب التلاوة في المصحف. ومعنى ذلك أن تحديد الناسخ من المنسوخ في آيات القرآن يعتمد أساسًا على معرفة تاريخية دقيقة بأسباب النزول، وبترتيب نزول الآيات.»٣٢ أي إن المعتبر هو تاريخية النص في علاقته الزمنية المتحركة، بحركة الواقع المتحول دومًا.

وللمطالع أن يلاحظ أن «عمر بن الخطاب»، صاحب الخطاب الأشهر في الإصرار على العمل بحكم آية غير موجودة في المصحف، ولم تُكتب أصلًا، كان هو صاحب حجتين في عدم كتابتها: الحجة الأولى واقع الناس وهم يتسافدون تسافد الحمر، والثانية موقف الشاب المحصن والشيخ غير المحصن من تطبيق حد الزنى. أما الأمر الأوضح دلالة فهو فيما ورد بلفظ القاضي «أحمد» الشهير بابن خلكان، في كتابه وفيات الأعيان، وهي رواية مهمة توضح موقف عمر بن الخطاب بعد أن أصبح خليفة، من تطبيق حد الرجم على «المغيرة بن شعبة». في رواية القاضي أحمد، التي يلخصها لنا الإمام شرف الدين الموسوي تحت عنوان: درؤه الحد عن المغيرة بن شعبة «وذلك حيث فعل المغيرة مع الإحصان، ما فعل مع أم جميل بنت عمرو، امرأة من قيس، في قضية من أشهر الوقائع التاريخية في تاريخ العرب، كانت سنة ١٧ للهجرة. لا يخلو منها كتاب اشتمل على حوادث تلك السنة، وقد شهد عليه بذلك كل من أبي بكرة وهو معدود من فضلاء الصحابة وحملة الآثار النبوية، ونافع بن الحارث وهو صحابي أيضًا، وشبل بن معبد.

وكانت شهادة هؤلاء الثلاثة صريحة، بأنهم رأوا المغيرة بن شعبة يولجه في أم جميل إيلاج الميل في المكحلة، لا يكنون ولا يحتشمون، ولما جاء الرابع وهو زياد بن سمية يشهد أفهمه الخليفة رغبته في ألا يخزي المغيرة، ثم سأله عما رآه فقال: رأيت مجلسًا، وسمعت نفسًا حثيثًا وانتهارًا ورأيته مستبطنها، فقال عمر: أرأيته يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة؟ فقال: لا، لكني رأيته رافعًا رجليها فرأيت خصيتيه تتردد ما بين فخذيها، ورأيت حفزًا شديدًا وسمعت نفسًا عاليًا، فقال عمر: أرأيته يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة؟ فقال: لا، فقال عمر: الله أكبر، قم يا مغيرة إليهم فاضربهم، فقام يقيم الحدود على الثلاثة.»٣٣

وهناك مرويات أخرى، بخصوص آيات أخرى، وموضوع آخر، تجد نفسك في حيرة من أمر تصنيفها، حسب اللوحة الثلاثية، فإن اعتمدت روايات بعينها صنفتها ضمن ما نُسخ تلاوته وحكمه، وإن اعتمدت روايات أخرى صنفتها ضمن ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه، وهو ما يؤدي بالضرورة إلى الخبط وسوء التقدير. وهو ما يتمثل في رواية السيدة «عائشة رضي الله عنها» إذ تقول: «كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات، فنسخن بخمس معلومات، فتوفي الرسول ﷺ وهي مما يُقرأ في القرآن.»٣٤ والأمر يعني تحديدًا التحريم القائم على الرضاعة بعدد الرضعات، وهو من اللون الذي يصنفه السيوطي في باب «ما نُسخ حكمه وتلاوته معًا». رغم أنه لو أخذنا بحديث السيدة «عائشة»، وبالتصنيفات على اللوحة الثلاثية، لأدرجناه ضمن باب «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه». ووجه الإشكال في تصنيفه أصلًا ضمن «المنسوخ» أيًّا كان نوعه، أن النسخ كان لا بدَّ من وقوعه في عهد الرسول نفسه، بينما السيدة «عائشة رضي الله عنها» تؤكد أن الرسول قد توفي وتلك الآية مما يقرأ في القرآن، وهو ما دفع أبا موسى الأشعري إلى اللجوء لاصطلاح «رُفعت» في قوله التأويلي إنها نزلت ثم رُفعت.٣٥ أما حال بقية العلماء فيصوره لنا أبو جعفر النحاس بقوله: «فتنازع العلماء هذا الحديث ... فمنهم من تركه، وهو مالك بن أنس ... وقال رضعة واحدة تحرّ، ... وممن تركه أحمد بن حنبل وأبو ثور، قالا يحرم ثلاث رضعات، لقول النبي ﷺ: لا تحرم المصة ولا المصتان.»٣٦ بينما أعلن «مكي» دهشته الكاملة في قوله: «هذا المقال فيه غير المنسوخ غير متلو، والناسخ أيضًا غير متلو، ولا له أعلم نظيرًا».٣٧

ويؤكد العلماء أن السيدة «عائشة رضي الله عنها» ظلت على موقفها ... فقالوا: «لم تزل عائشة تقول برضاع الكبير.»٣٨ وهو ما يتعلق بما جاء في صحيح مسلم بشرح النووي (١، ٢٩) وأورده ابن الجوزي، عن «عائشة رضي الله عنها» قالت: «لقد نزلت آية الرجم ورضعات الكبير عشر، وكانت في ورقة تحت سرير بيتي، فلما اشتكى رسول الله ﷺ (مرض) تشاغلنا بأمره، فأكلتها ربيبة لنا (تعني الشاة) فتوفي رسول الله ﷺ وهي مما يقرأ في القرآن.»٣٩ وهكذا فقد سارت تلك الآية في التحريم من الرضاعة، بين الكبير والصغير، على أنها حُددت بعدد معلوم من الرضعات. وممن أخذ بإصرار السيدة عائشة

«أبو موسى الأشعري» و«الليث بن سعد».٤٠ وهو ما إن أخذناه على ظاهره، لأُدرج ضمن «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه»، أما لو نظرنا إلى ما حدث في الواقع، فيفسره قول السيدة «عائشة رضي الله عنها»: «فأكلتها ربيبة كانت لنا.» أما لو ذهبنا إلى ترك حديثها، مع تصنيف الآية ضمن «ما نُسخ حكمه وتلاوته» لبقيت أسئلة حيرى: هل تم ذلك النسخ قبل أن تأكلها الشاة؟ أم بعد أن أكلتها؟ أم أنها احتُسبت منسوخه لأنها لم تكن في صحف القرآن المجموع، لأن الشاة أكلتها؟

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد ظرف الواقع يجعل تلك الآية مستمرة في العمل بحكمها، رغم ما أُلحق بها من ظروف أدت لعدم وجودها بالمصحف المجموع، فقد كانت هناك إشكاليات تحتاج إلى حل تشريعي. وهو ما جاء نموذجًا في قول السيدة «عائشة رضي الله عنها»: «جاءت سهلة ابنة سهيل إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني أجد في وجه أبي حذيفة (زوجها، أي تجده مستاءً) إذا دخل عليَّ سالم، قال النبي ﷺ: فأرضعيه، قالت: وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟ قال: ألست أعلم أنه رجل كبير؟ ثم جاءت بعد، ثم قالت: والله يا رسول الله ما أرى في وجه أبي حذيفة بعد شيئًا أكرهه.» رواه مسلم وأبو داود.٤١ وعليه فقد علمت السيدة عائشة بالسبيل نفسها، فقال عروة: «إن عائشة كانت تأمر أختها أم كلثوم، وبنات أخيها، أن يرضعن من أحبت أن يدخل عليها من الرجال.» رواه مالك. ويقول «د. شعبان محمد إسماعيل»: «وحجتهم حديث سهلة هذا، وهو حديث صحيح لا شك في صحته، ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ (النساء: ٢٣). فإنه غير مقيد بوقت.»٤٢

والأمر بذلك يدل على ضرورة فرضها استفتاء المؤمنين لأم المؤمنين في شئون دينهم، فكان لقاؤها بالرجال مشروطًا بذي محرم، وهي الإشكالية الموضوعية التي وجدت حلها في القول برضاع الكبير، والاستمرار في العمل به، وإصرار السيدة «عائشة رضي الله عنها» عليه. وهكذا يكون وضع آية رضاع الكبير هو نفسه وضع آية رجم الشيخ ولا وجود لهما في كتاب الله الكريم، ليس لأنهما نُسختا، وإنما لأن الأولى أكلتها الشاة، بينما الثانية لم تكتب أصلًا، والظرف الموضوعي شاهد، ويشير إلى أن وضع باب في النسخ بعنوان «ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه» من باب التأوُّل بغير سند، اللهم إلا الخلط مرة مع السنة باحتسابها من عوامل النسخ، ومرة للعمل ببعض عمل «عمر» وليس كله، ومرة للأخذ بحديث زوجات دون زوجات من أمهات المؤمنين. أما الأساس فهو العمل وفق حوار النص نفسه، وليس حواره مع الواقع، بينما يمكن للواقع أن يكون فاصلًا تمامًا في هذا الشأن، وهو ما نسعى إلى التنبيه إليه، ونلح في طلبه. والملاحظ في الحالتين المعروضتين هنا تعلقهما بشرائع، وبشأن الشرائع ونسخها في كتاب الله العزيز بوجه عام لاحظ الإمام الزمخشري أمرًا له قيمة إذ يقول: «والله تعالى ينسخ الشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس، يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصالح ... وكانوا يقولون: إن محمدًا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا. فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق والأشق بالأشق والأهون بالأهون، لأن الغرض المصلحة، لا الهوان والمشقة ... إن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة.»٤٣ وقد ذهب المذهب نفسه في التأكيد على عامل «المصلحة» في النسخ، الإمام الآلوسي، لكنه مال إلى رأي من قالوا: إن التبديل يأتي بالأهون، بعد أن قدَّم له المبررات، وذلك من قوله: إن الناسخ في تلك الحال «... لا بد أن يكون مشتملًا على مصلحة خلا منها الحكم السابق، لما أن الأحكام إنما تنوعت للمصالح، وتبدلها منوط بتبديلها حسب الأوقات، فيكون الناسخ خيرًا منه في النفع، سواء أكان خيرًا منه في الثواب أم مثلًا له، أم لا ثواب فيه أصلًا ... والحاصل أن المماثلة في النفع لا تتصور، لأنه على تبديل الحكم تبتدل المصلحة، فيكون خيرًا منه، وعلى تقدير عدم تبدله، فالمصلحة الأولى باقية على حالها.»٤٤

وإذا كنا قد قلنا من قبل إن الآيتين (الرجم، ورضاعة الكبير) ربما لم تكونا من قبيل المنسوخ، فإنما نقصد بالمنسوخ المتعارف عليه اصطلاحًا بشروط بعينها، وإن كان ينسحب عليها اجتهاد الزمخشري والآلوسي، فالأولى لم تكتب والثانية أكلتها الشاة، بتقدير حساب المصالح، والمنافع، والزمن (حسب الأوقات). وإن كان ذلك لا يعني رفضنا للقول بالنسخ في القرآن الكريم، لأن مثل ذلك القول يئول إلى الكفر والعياذ بالله، ونحن على نعمة الإيمان حريصون، ولا يمكننا أن نفرط فيها. فقط نضع اجتهادًا من باب محاولة الفهم، ربما أصاب وربما أخطأ، والمنوط في الأمر جميعه صدق النوايا وسلامة الإيمان وهو ما نحمد الله عليه حمدًا كثيرًا.

(٤) ما نُسخ حكمه وبقيت تلاوته

يقول «د. محمد علي الصغير»: إن الوحي قام بجابه الفضوليين على الرسول ﷺ «الذين كانوا يأخذون عليه راحته، ويزاحمونه وهو في رحاب بيته بين أفراد عائلته وزوجاته، فينادونه باسمه المجرد، ويطلبون لقاءه دون موعد مسبق ... إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.» وهو بذلك إنما يشير إلى تغير الواقع وتبدله، بعد أن هاجر المصطفى ﷺ من مكة إلى المدينة، وبعد أن مر زمان استتبت فيه الأركان للدعوة وصاحبها، وأصبح هناك أصول يجب اتباعها في التعامل مع النبي ﷺ، ولم يعقلها ويعها أولئك الذين ظلوا يتصورون أنه بالإمكان مناداته من خارج بيته «يا محمد». ويتابع «د. الصغير» القول: «واستأثر البعض بالإمكان بوقت القائد، فكانت الثرثرة والهذر وكان التساؤل والتنطع، دون تقدير لملكية هذا الوقت، وعائدية هذه الشخصية، فحد القرآن من هذه الظاهرة ... وعالجها بوجوب دفع ضريبة مالية تسبق هذا التساؤل أو ذلك الخطاب، فكانت آية النجوى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المجادلة: ١٢) ... فامتنع الأكثرون عن النجوى، وتصدَّق من تصدَّق، فسأل ووعى وعلم وانتظم المناخ العقلي ... ولما وعت الجماعة الإسلامية مغزى الآية ... نسخ حكمها ورُفع، وخفف الله عن المسلمين بعد شدة ... في آية النسخ: أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المجادلة: ١٣).»٤٥

والحالة التي بين أيدينا هنا واقع حي يتحدث ويفعل، فيتفاعل معه الوحي منفعلًا وفاعلًا، ويتهرب المتسائلون من لقاء النبي إشفاقًا من نفقات يدفعونها ضرائب للسؤال والتعلم، فيعود الوحي يجمعهم مرة أخرى، مسقطًا عنهم ضريبة العلم، مبقيًا على الصلاة والزكاة، مع شرط طاعة الرسول ﷺ. وهكذا نجد آية النجوى وقد نسخ حكمها بآية ناسخة، بينما بقيت التلاوة قائمة في القرآن الكريم غير منسوخة. وفي تفسير الخازن أمثلة أخرى لهذا الوجه من وجوه النسخ إذ يقول: «وهو كثير في القرآن، مثل آية الوصية للأقربين نُسخت بآية الميراث عند الشافعي، وبالسنة عند غيره. وآية عدة الوفاة بالحول نُسخت بآية «أربعة أشهر وعشرًا». وآية القتال: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ (الأنفال: ٦٥)، نسخت بقوله تعالى: الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا (الأنفال: ٦٦)، ومثل هذا كثير.»٤٦ وقال ابن العربي: «كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار والتولي والإعراض والكف عنهم منسوخ بآية السيف، وهي: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ، الآية نسخت مائة وأربعًا وعشرين آية» (التوبة: ٥)٤٧ لكن السيوطي يشير إلى إشكالية ضمن إشكاليات تثور في نسخ آية السيف لآيات الصفح والتولي والإعراض في قوله: «قال تعالى: أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (التين: ٨)، قيل إنها مما نسخ بآية السيف وليس كذلك، لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبدًا، لا يقبل هذا الكلام النسخ، وإن كان معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقبة.»٤٨

والمعلوم أنه عندما جُمع المصحف زمن «عثمان بن عفان رضي الله عنه»، تم جمع كثير من الآيات المنسوخة إلى جوار الآيات الناسخة، وهذا هو الواقع الذي فرض إنشاء باب في النسخ بعنوان «ما نُسخ حكمه وبقيت تلاوته»، وهو الواقع الذي أدى إلى ظهور كثير من الآيات بمظهر التضارب والتناقض، وليس الأمر كذلك، إنما الأمر يعود إلى واقع حدث الجمع، فالقرآن الكريم لا يحمل تناقضًا ولا تضاربًا، ومثالًا لحالات التناقض الظاهري أمثلة نسوقها في عدة نماذج:

النموذج الأول: الآيات المتعلقة بالكتب السماوية السابقة على كتاب الله العزيز: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ (المائدة: ٤٣)، إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ (المائدة: ٤٤)، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ (المائدة: ٤٧) الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ (المائدة: ٤٦) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ (المائدة: ٤٨)، وهي الآيات التي يقابلها آيات أخرى تقول: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ (النساء: ٤٦) يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ (المائدة: ١٣) وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ (البقرة: ٧٥).

النموذج الثاني: الآيات المتعلقة بأصحاب الديانات الكتابية: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: ٦٢)، وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (العنكبوت: ٤٦)، وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً (الحديد: ٢٧)، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (آل عمران: ٥٥)، وهي الآيات التي يقابلها آيات تقول: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران: ١٩)، وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران: ٨٥).

النموذج الثالث: الآيات المتعلقة بالمدى المسموح به من الحرية الدينية: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (الكافرون: ٦)، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس: ٩٩)، لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (البقرة: ٢٥٦)، وهي الآيات التي يقابلها: أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا (آل عمران: ٨٣).

النموذج الرابع: الآيات المتعلقة بالموقف من المشركين: وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ (آل عمران: ٢٠)، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (فاطر: ٢٣)، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ (هود: ١٢)، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

وَعِظْهُمْ (النساء: ٦٣)، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ (النساء: ٨١)، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ (المائدة: ١٣)، عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (المائدة: ١٠٥)، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الأنعام: ١٠٧)، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (الغاشية: ٢٢)، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (الإسراء: ٥٤)، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (المزمل: ١٠)، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (المعارج: ٥)، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ (طه: ١٣٠)، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (الحجر: ٨٥)،خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف: ١٩٩)، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (فصلت: ٣٤)، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (الرعد: ٤٠).

هذا بينما نجد آيات لا ترجئ الحساب ليوم القيامة، إنما تضعه بيد الجيش الإسلامي، وتأمر بقتال من لم يسلم، ونموذجًا لهذه الآيات: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ (التوبة: ٢٩)، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (النساء: ٩١)، فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ (محمد: ٤)، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (النساء: ٨٩)،فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (الأنفال: ١٢)، وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ (الأنفال: ٣٩).

وهكذا نجد على الطرفين آيات مثل:

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ (آل عمران: ٢٠)، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (النساء: ٨٩).

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا (الأنعام: ٦١)، فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ (محمد: ٣٥).

وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ (البقرة: ١٩١)، فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبة: ٥).

ومِن ثَمَّ بات واضحًا أن جمع الآيات المنسوخة إلى جوار الآيات الناسخة، أنشأ نوعًا من التضارب الظاهري في الآيات، جلَّ الله تعالى عن ذلك. وقد ذهب العلماء في تعليل ذلك إلى القول بأن بقاء المنسوخ هو من قسم المنسأ، وهو ما يقول فيه السيوطي: «فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى ... بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم، بل ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله، وقال مكي: ذكر جماعة: إن ما ورد من الخطاب مشعرًا بالتوقيت والغاية، مثل قوله في البقرة: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل.»٤٩

وهكذا، وتأسيسًا على الأخذ بمبدأ أزلية الوحي، أرجع الأمر لباب جديد هو باب المنسأ، بينما الآية التي يوردها السيوطي فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ (البقرة: ١٠٩) تشير إلى الظرف الموضوعي الذي تجادل معه الوحي وتفاعل. مما أدى لتغير موقف الوحي وتبدله مع تغير وتبدل ذلك الظرف وما يطرأ فيه من تحولات. فالمعلوم أن موقف الإسلام من المسيحية كان في البداية موقفًا مهادنًا متسامحًا يؤكد حرية الاعتقاد، وأن في الإنجيل هدى ونور، وأن القرآن جاء يصادق على ما سبق وورد فيه، وأن الله رفع أصحابه فوق الكافرين إلى يوم القيامة. لأسباب ظرفية واضحة في حاجة المسلمين إلى دار هجرة لدى نجاشي الحبشة المسيحية، وإذ رددت شفاه المسلمين هناك الآيات عن المسيح وأمه، فكان أن أحسن استقبالهم ووصلهم بالود والرحمة.

كذلك الحال في الموقف من اليهودية واليهود، فقد كانت يثرب دار هجرة للمسلمين، بينما كانت معقلًا كبيرًا لليهود الجزيرة، وكانت «المصلحة» والحكمة تستدعي أن تسبق المسلمين، المهاجرين إلى يثرب، آيات تردد ذكر أنبياء بني إسرائيل، وقصص العهد القديم، والقرار بأن الله فضَّلهم على العالمين، وأن توراتهم فيها هدًى ونور، وعليهم الحكم بما جاء فيها. وكان أول عمل سياسي مهم قام به المصطفى ﷺ عند وصوله يثرب هو عقد الصحيفة التي كفلت حرية الاعتقاد لأهل المدينة جميعًا. وكان من أهم نصوصها «هذا كتاب محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، أن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ... وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ...» بل واشترع للمسلمين صوم الغفران اليهودي، بل والتوجه في الصلاة وجهة اليهود (بيت المقدس).

ولكن الظرف لم يستمر على حاله، مما أدى إلى إلغاء الصوم العبري واستبداله بصوم رمضان العربي، كما أُلغيت كعبة بيت المقدس واستُبدلت بكعبة مكة، ثم أخذ كل من النبي ﷺ واليهود يكتشفون اختلاف توجهاتهم، ثم يكتشفون اختلافات عميقة، بين ما بين يدي اليهود من التوراة، وبين ما يتلوه رسول الله ﷺ. وهنا اتخذ الأمر وجهة أخرى، خاصة بعد غزوة بدر الكبرى، التي مكنت المسلمين من العتاد والسلاح والقوة المادية والمعنوية. إذ يكشف لنا الوحي أن سبب اختلاف القرآن عن التوراة في كثير من التفاصيل، إنما يرجع إلى قيام اليهود بتحريف التوراة الأصلية ومن هنا حق قتالهم لتبديلهم آيات الله؛ ومِن ثَمَّ نقض الصحيفة وإبطال الحرية الدينية، وجاء الأمر وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ (البقرة: ١٩٣)، بعد أن أصبح «الدين عند الله الإسلام».

وكان الموقف نفس الموقف من المسيحية اليعقوبية بعد انتفاء الحاجة للحبشة ونجاشيها، وكان لا بد أن يقول الوحي كلمته إزاء العقائد المسيحية. وهو الأمر الذي ينطبق على الموقف من أهل مكة، إذ بدأت الآيات الحكيمة في مكة زاخرة بما يلائم حال الضعف التي كان عليها المسلمون وسط أكثرية معادية، فقررت حرية الاعتقاد وأنه لا إكراه في الدين، والأمر موكول إلى الله يوم القيامة. أما بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، وبعد وقعة بدر الكبرى، والتحول من حال الضعف إلى حال القوة، أتت الآيات الناسخة تبطل حرية الاعتقاد، وتأمر بقتال غير المسلمين وقتلهم. وهو الأمر الذي لحظه الإمام السيوطي وجلة الأجلاء من العلماء، لكنهم أدرجوه في باب المنسأ وهو ما عبرت عنه الآيات بجلاء فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ (البقرة: ١٠٨).

(٥) ما نُسخ تلاوته وحكمه

عن «الزهري» قال: «أخبرني أبو أمامة ... أن رهطًا من أصحاب النبي ﷺ قد أخبروه أن رجلًا منهم قام في جوف الليل، يريد أن يفتتح سورة كان قد وعاها، فلم يقدر على شيء منها إلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فأتى النبي ﷺ حين أصبح، يسأل النبي عن ذلك. وجاء آخر وآخر حتى اجتمعوا، فسأل بعضهم بعضًا ما جمعهم، فأخبر بعضهم بعضًا بشأن تلك السورة، ثم أذن لهم النبي ﷺ فأخبروه خبرهم وسألوه عن السورة، فسكت ساعة لا يرجع إليهم شيئًا، ثم قال: نسخت البارحة.»٥٠

وقد عقب أبو بكر الرازي على باب «ما نُسخ تلاوته وحكمه» بالقول: «إنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ويرفعه من أوهامهم ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكَتْبه في المصحف، فيندرس مع الأيام.»٥١

وقد وضع ضمن هذا الباب عددًا من الروايات حول عدد من الآيات التي كانت معروفة زمن النبي، لكنها لم توجد بالقرآن الكريم، لكن مع تعليلات أخرى تشير إلى أحداث في الواقع، أدت إلى اختفاء مثل تلك الآيات. ومن تلك الروايات ما جاء عن «شريك بن عاصم» عن «زر» فمن قوله: «قال لي أبي بن كعب: كيف تقرأ سورة الأحزاب؟ قلت: سبعين أو إحدى وسبعين آية، قال: والذي أحلف به، لقد نزلت على محمد ﷺ وإنها لتعادل البقرة أو تزيد عليها» (انظر التهذيب، ١٠، ٤٢–٤٤)،٥٢ وعن عمر قال: «ليقولن أحدكم: قد أخذت القرآن كله، وما يدريه ما كله، قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر ...» وعن عائشة قالت: «كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي حتى مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلَّا على ما هو الآن.» وعن أبي أمامة بن سهل أن خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة. وقال حدثنا حجاج بن جريج، أخبرني أن أبي حميدة عن حميدة بنت يونس قالت: «قرأ عليَّ أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة: إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا وعلى الذين يصلون في الصفوف الأولى. قالت: قبل أن يغير عثمان المصحف.»

وعن أبي سفيان الكلاعي أن مسلمة بن مخلد قال لهم ذات يوم: أخبروني بآيتين من القرآن لم تكتبا في المصحف فلم يخبروه، وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك، فقال ابن مسلمة: «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون والذين آووه ونصروه وجادلوا عنه القوم الذين غضب عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.»٥٣ هذا ويورد السيوطي «عن عدي بن عدي قال عمر: كنا نقرأ ألا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم، ثم قال لزيد بن ثابت: أكذلك؟ قال: نعم ... وقال عمر لعبد الرحمن بن عوف ألم تجد فيما أنزل علينا: أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة، فإنا لا نجدها، قال: أُسقطت فيما أُسقط من القرآن.»٥٤ كما روى «مسلم» في إفراده عن «عائشة» رضي الله عنها أنها أملت على كاتبها: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين (بشرح النووي، ٥: ١٢٩، ١٣٠).

والإشارات من جانب السيدة عائشة إلى دور الجمع في عهد الخليفة «عثمان» فيما حدث تعود بلا شك إلى كون «عثمان» قد حمل الناس على مصحف واحد، ثم حظر ما عداه، بل وحسم الأمر فحرق ما عداه من صحف قرآنية. وقد عقَّب «د. طه حسين» على ذلك بقوله: «إن النبي ﷺ قال: نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كافٍ شافٍ، وعثمان حين حظر ما حظر من القرآن، وحرق ما حرق من الصحف، إنما حظر نصوصًا أنزلها الله

وحرق صحفًا كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله ﷺ، وما كان ينبغي للإمام أن يلغي من القرآن حرفًا أو يحذف نصًّا من نصوصه.

وقد كلف كتابة المصحف نفرًا قليلًا من أصحاب النبي، وترك جماعة القراء الذين سمعوا من النبي وحفظوا عنه، وجعل إليهم كتابة المصحف، ومن هنا نفهم سر غضب ابن مسعود، فقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن، وهو فيما يقول قد أخذ من فم النبي ﷺ سبعين سورة من القرآن، ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعد. ولما قام ابن مسعود يعترض الأمر، رافضًا تحريق صحف القرآن أخرجه عثمان من المسجد إخراجًا عنيفًا، وضربت به الأرض فدقت ضلعه.»٥٥

وبعد، فإن ما قدَّمناه هنا على عجالة، ليس دفاعًا عن كتاب الله الكريم، فالكتاب متكامل بذاته، مستغنٍ عن مثل ذلك الدفاع، وليس دفاعًا عن عقيدة أو دعوة، فقد بلغ الإسلام تكامله واستقراره في حياة صاحب الدعوة ﷺ، وهو الأمر الذي لا يخشى معه عرض مسألة من المسائل التي تشغل بال المسلم؛ ومِن ثَمَّ فقد حاولنا إبراز شذرات قليلة في الروايات، تشير إلى ارتباط الوحي بواقعه، وكانت محاولتنا بالأساس محاولة لفهم ظاهرة النسخ، مستندة إلى اعتبار الواقع مقياسًا لفهم حركة النص المرتبط به، فينفعل به، ويفعل فيه، من أجل مصالح ومنافع وغايات أعم في فضلها، وحسبي هنا إخلاصي النية في الجهد للفهم. وهو الجهد الذي ربما أصاب، وذلك غاية المراد، وربما أخطأ، ولا جناح هنا من الطموح إلى ثواب الأجر الواحد، وربما كان جهد المحاولة بين الصواب والخطأ، وربما ألمح إلى طريق حان ولوجه، بكفاءة المقتدرين عنا من متخصصين، وربما كان كل الجهد بلا طائل لسقوطه في أخطاء غابت عنا. لكن اليقين الذي نعيه تمامًا ونعتقده ولا نحيد عنه، هو تكامل الوحي وتفاعله التاريخي العظيم مع واقعه، فلم يدخله باطل ولا زيف، ذلك الوحي الكريم الذي جمعته صفحات القرآن الكريم، ووصفه الله عز وجل بأنه كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود: ١).❑❑

١ السيوطي «جلال الدين»، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م، ج٢، ص٢٠.
٢ النحاس «أبو جعفر»، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١، ٣.
٣ د. شعبان محمد إسماعيل، مقدمته لكتاب النحاس (الناسخ والمنسوخ)، ص٥، ٩.
٤ د. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٦.
٥ الطبري «ابن جرير»: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٠م، ج٢، ص٣٣٧–٣٤٠.
٦ النحاس، الناسخ ... سبق ذكره، ص١٢.
٧ نفسه، ص٢٢٥.
٨ الطبري، الموضع السابق ذكره.
٩ د. شعبان محمد إسماعيل، سبق ذكره، ص١١.
١٠ النحاس، الناسخ ... سبق ذكره، ص٢٢٥.
١١ د. شعبان محمد إسماعيل، سبق ذكره، ص١٣.
١٢ النحاس، الناسخ ... سبق ذكره، ص٢٢٥.
١٣ المرجع السابق، ص٢٢٦.
١٤ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرءوف ومحمد يحيى، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة ١٩٧٤م، ج١، ص٢٦٢.
١٥ علي حسن العريض، فتح المنان في تفسير القرآن، مطبعة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص٨٥، ٤٨٦ انظر أيضًا: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٦١.
١٦ ابن الجوزي «جمال الدين»، نواسخ القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٣، ١٤.
١٧ د. نصر أبو زيد، المصدر السابق، ص١٣١، ١٤٨، ١٥٢.
١٨ انظر فتح الباري، ١١، ١٩١-١٩٢؛ وأخرجه الصحيحان: مسلم، ١٥، ٨٥، أحمد، ١٦، ٨١-٨٢.
١٩ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٥.
٢٠ السيوطي، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥.
٢١ النحاس، سبق ذكره، ص٨.
٢٢ السيوطي، سبق ذكره، ج٢، ص٢٤، ٢٥.
٢٣ النحاس، سبق ذكره، ص١١٧، ١١٨.
٢٤ نفسه، ص١١٩.
٢٥ نفسه، ص١٢٠.
٢٦ البخاري وأبو داود: كتاب الحدود، باب رجم ماعز.
٢٧ النحاس، سبق ذكره، ص١٢٠.
٢٨ السيوطي، سبق ذكره، ج٢، ص٢٦.
٢٩ نفسه، ص٢٦، ٢٧.
٣٠ نفسه، ص٢٧.
٣١ المرجع السابق، ص٢٦.
٣٢ د. نصر أبو زيد، سبق ذكره، ص١٣٥.
٣٣ عبد الحسين شرف الدين الموسوي، النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمي، كربلاء، ط٤، ١٩٦٦م، ص٢٥٩؛ انظر أيضًا ابن كثير، البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٧، ص٨٣، ٨٤.
٣٤ أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، طبعة دار الشعب، ١٦٧، ٤.
٣٥ السيوطي، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥.
٣٦ النحاس، سبق ذكره، ص١٠.
٣٧ د. شعبان محمد إسماعيل، سبق ذكره، ص٤١.
٣٨ النحاس، سبق ذكره، ص١٢٥.
٣٩ ابن الجوزي، سبق ذكره، ص٣٧.
٤٠ النحاس، سبق ذكره، ص١٢٣.
٤١ نفسه، ص١٢٤.
٤٢ د. شعبان محمد إسماعيل، سبق ذكره، في الحاشية، ص١٢٤.
٤٣ الزمخشري، الكشاف، ٤٢٨، ٢.
٤٤ الآلوسي، روح المعاني، ٣٥٣، ١٢.
٤٥ د. محمد حسين الصغير، تاريخ القرآن، الدار العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
٤٦ الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، ٩٤، ١.
٤٧ السيوطي، سبق ذكره، ج٢، ص٢٤.
٤٨ نفسه، ص٢٢.
٤٩ المرجع السابق، ص٢١.
٥٠ ابن الجوزي، سبق ذكره، ص٣٣.
٥١ السيوطي، سبق ذكره، ج٢، ص٢٦.
٥٢ انظر أيضًا: ابن الجوزي، سبق ذكره، ص٣٤.
٥٣ السيوطي، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥، ٢٦.
٥٤ نفسه، ص٢٥.
٥٥ انظر: الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين، دار المعارف، ط١، ج١، صفحات ١٦٠، ١٦١، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣.

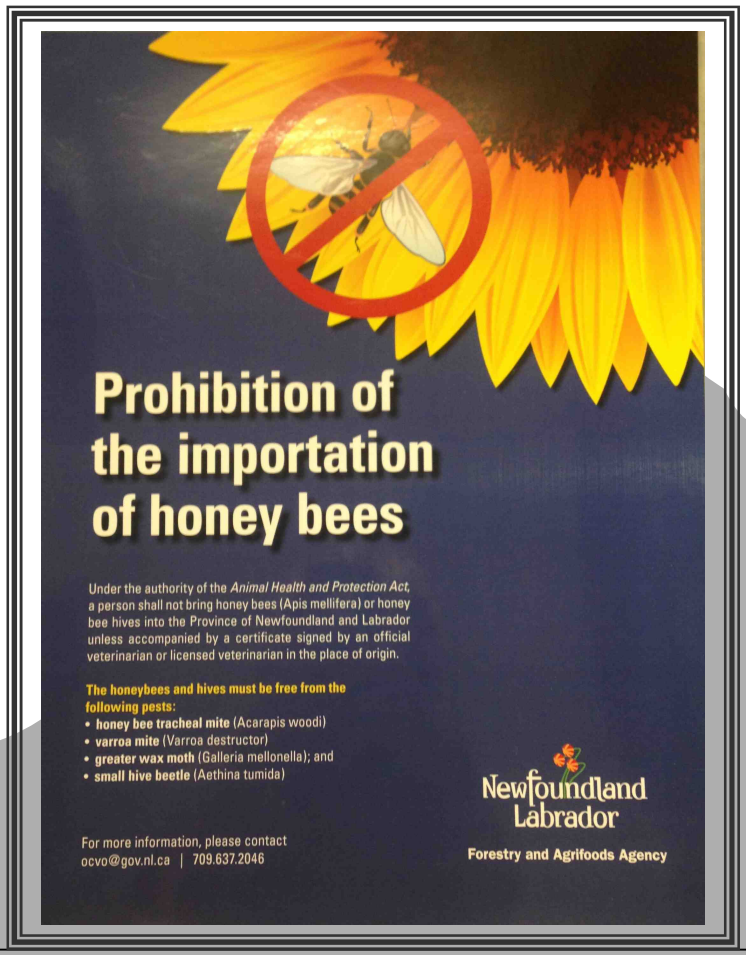

الأغاني في مجال أغبال

عذري مازغ
المغرب

❑ الأغاني و"أللون" أو "البندير"

في تلك السنوات من بداية السبعينات، وكوننا منطقة معزولة تماما عن الحواضر وإذا كان عملنا كما أسرفت عمل مكثف بحيث لا يتوقف على شغل بعينه بل كان عملا دؤوبا فيه ما هو معتاد وروتيني كتربية المواشي والأعمال المنزلية المعتادة وفيه ما هي أعمال موسمية كالحرث والحصاد واخرى ظرفة تتم لقضاء بعض الحاجات اليومية كالحطب او زراعة بعض الخضراوات التي نستعين بها لتقليل أعباء السوق وعادة كانت عبارة عن احواض صغيرة موسمية، أضف إلى ذلك، وبالنسبة للنساء كن يقمن في الأوقات الفارغة بأعمال النسيج المتعلقة بالأفرشة الصوفية، حصائر الدوم وألبسة صوفية أيضا سواء ألبسة نسوية ك "تاغناست" أو الجلباب الصوفي والسلهام الصوفي (البرنوص) وكان معروفا أن النساء (نساء الجيران)كن يتعاون في هذه الأمور في الوقت الفارغ سواء فيما يخص تركيب الخيوط في المنسج "أفكاك" او حتى في عملية النسج نفسها بشكل تتلقن معرفتهن بفن النسج من خلال تبادل الخبرات وأذكر أنهن كن يعتمدن حتى الرسم الطوبوغرافي في النسج خصوصا فيما يتعلق بالزربية الأطلسية ويسمونه ب "لبلان" وهي اقتباس من كلمة (Plan) الفرنسية، وهو عبارة عن رسم لتشابك مثلثات ورموز من خلال تنقيطها بشكل رياضي في الورق. وبشكل عام كانت كل الأعمال في منطقتنا تتم في جو مرح ونشط وكان الغناء مصاحبا لكل هذه الأعمال، لقد ذكرت سابقا الغناء في الحقول بالنسبة للحصاد، الغناء في الغابات بشكل كان تردد الصدى طبيعيا يثير تنغما اكثر في سياق الإعتزاز بالذات من خلال سماع صوتها مترددا عبر الصدى، وحتى في المناسبات الحزينة كان لها أغانيها المعبرة بشكل كان الفن، فن الغناء بالخصوص يشكل تعبيرا إنسانيا على مشاعر معينة لدرجة أن النواح في القبور كان يتخذ ايضا اشكالا غنائية حزينة نعيا للفقيد وإن كانوا يتحفظون كثيرا على نعت هذه الأشكال بالغناء الحزين او الغناء البكائي ويسمونه بالنوح واذكر في هذا الصدد عتابا لسيدة مات ابنها وحضرت في جنازتها امراة معروفة بصوتها الحزين ولم تنح عزاء في ابنها المتوفى، سألتها المرأة ذات الصوت الحزين لماذا تقاطعها ولا تكلمها فأجابته المراة المفجوعة في ابنها:
" لقد غضبت منك، تملكين صوتا جميلا وحزينا ولم تهللي أو تنوحي في وداع ابني..!"
وردت عليها المرأة:
"يا سيدتي انا شخت، هرمت، لم يعد لدي ذلك الصوت الذي تعرفينه ولم تعد لي تلك الطاقة التي كانت لدي للنواح، انا حزنت مثلك لفقدان ابنك في طفولته".

لازلت اذكر هذا الحوار الحزين بين امراة شابة وأخرى هرمة كانت ذات يوم تغني على إيقاع الرحى هذه الاغنية الجميلة والحزينة التي غناها الفنان محمد مغني والتي استحق بها لقب القديس، هذه الأغنية وإن اقترنت به لأنه غناها على إيقاع الوتر، كانت في الواقع تغنى على إيقاع صوت الرحى وهي تطحن القمح وليس مغني من ابدع كلماتها بل هي أغنية متوارثة شفهيا وهي أغنية رثاء في الغياب بسبب الحج إلى مكة، كانت الاغنية تبدأ بلازمة هي: "صلي على النبي! صلي على الحبيب" بلكنة ممزغة ترثي الغياب: غياب الناس منا ممن ذهب في رحلة للحج، داخل هذه اللازمة كلمات أمازيغية ذات رنة دينية حزينة، كان الحج يمثل بالنسبة لقبائلنا مغامرة ضرورية، كمسلمين هم يقومون بركن إسلامي، في العمق كان يمثل موتا آخرحين كان السفر بالطرق القديمة عبر قوافل قد يعود منها الحاج حيا او قد يعود خبر نعيه فقط، وكانت الرحلة تمتد إلى سنة أو أكثر بشكل يطرح البعد الزمني احتمال الغياب بالمطلق كالموت او طبعا الغياب النسبي: عودة الحاج بعد رحلة طويلة، وكنا نحتفل بالحجاج بشكل عام على شكل مهرجان احتفالي بنصب الخيم في "تافراوت" (تافراوت عادة بغض النظرعن معناها الأمازيغي، تعني هنا أرض منبسطة محاطة بجبال او بغابة، الترجمة الحرفية هي مقتبسة من كلمة تيفروت وهي الخشبة أو اللوحة الخشبية، لكن في السياق الإجتماعي نطلقها على الارض أيضا) معينة تقام فيها كل طقوس الإحتفال: "التبوريدة" وكذلك رقص أحيدوس.

أحيدوس هو الشكل الذي يعكس فنيا كل أنماطنا الإجتماعية انطلاقا من شكله الدائري أو نصف دائري والذي يعبر عن أشكال تموضع الخيام في الجبل او السهل: كانت القبائل عادة تبني الخيم على شكل دائري في مناطق السهول (أزاغار) وعلى شكل نصف دائري في المناطق الجبيلة، وهذا النمط من البناء كانت تتحكم فيه الخلفية الأمنية للتجمعات القبلية، الشكل الدائري للخيام في السهل يتجلى في توزيع النظر في كل الجهات تفاديا لغدر معين من قبيلة غازية أو حتى من لصوص محتملين او أي خطر، النصف دائري يتجلى في تركيز النظر إلى الجهة الأكثر احتمالا في ان ياتي منها غدر معين.. فذا في الشكل أما الحركات الرقصية العجيبة كما تتجلى في حركة ما سمي في الفلكلور التسييحي برقصة المايسترو فهي حركات تتقمص بعض الحركات التي هي نفسها تمثل بصمة لحركة الفرس والبغل والطيروالإيقاع الإجتماعي: إن أحيدوس رحلة في العمق الأمازيغي تمثل كل انساقنا الإجتماعية، في احيدوس قد ترى فرح الفرس، تكاسل المشي عند حمار، لوعة النسر، حلم الحمام والحجل وفرحة الإنتصار)، وبشكل عام كان احيدوس بصمة نمطنا الرحالي وحتى الاغاني فيه مرتبطة بهذا النمط الرحالي وحتى إيقاع صوت البندير (أللون) فيه هو إيقاع حوافر الفرس وصوت جناح الطير في تعبيراتهما المرحة .

في تلك المرحلة الأغبالية كنت عدو "أللون"، عدو البندير، بشكل ما، كان عمي ذي ربطة العنق الإستقلالية، ولأني كنت قد سبقت كل اطفال قريتي إلى التمدرس، كانت شخصية عمي الذي درس بجامعة فاس العتيقة (جامعة القرويين) كان لشخصيته أثر سلبي علي: هذا العم هو من حمل لنا إيديولوجية حزب الإستقلال إلينا والتي تلقاها في جامعة القرويين، لم يكن هو وحده بل كل الذين أرسلتهم قبائلنا لدراسة العلم في فاس : هؤلاء حملوا إلينا أن الغناء الأمازيغي حرام على الرغم انه هو قاعدة مرحنا، وعمي هذا كان لا يستطيع أن يقاوم صوت ابنة خدجوا حين تصيح في اغانيها من تحت شجر البللوط وكان متيما بحبها، وغضب من خدجوا غضبة العمر حتى مات: لم يكن يكلمها لأنها رفضت ان تتزوج ابنتها به لأسباب لا نعرفها حتى الآن.

كنت متأثرا بعمي هذا لأنه درس في المدينة العتيقة المعروفة في المغرب، مدينة فاس، وكانت هذه المدينة حسب عمي هي من خرج منها إشعاع أن الاغاني الامازيغية محرمة، لا يوجد مصدر عندي لكن في السياق الإجتماعي عندنا في أغبال، الاغاني الامازيغية في الراديو(القسم الامازيغي لإذاعة البريهي) هي للبالغين فقط، وانا هنا تكلمت على عملية نسج "أزضا" (نسج الحصائر والزرابي والسلهام وغيره)، اذكر انه حين احضر كطفل ويحضر أبي، يغلقون المذياع، مع النساء فقط لا مشكلة بشكل طرح عندي منذ طفولتي ان المرأة هي رمز الحرية: مع امي أستطيع أن أسمع أغاني إذاعة البريهي الأمازيغية، مع والدي لا.

لا أحب أن أتكلم عن عمي هذا، كانت له جوانب إيجابية في حياتي برغم انه أدخل بؤس المنفلوطي (المصري أو التركي).❑❑

زنزانته وماهم ولكنه العشق

مظفر النواب
العراق

❑ هامَ لم يَدرِ
متى أطفأهُ الشَّوقُ
وأينَ احترقا
سِنةٌ ما بين كأسينِ
غَفا ثم صَحا
واغتَبَقا
سَقَطت زهرةُ لوزٍ
عِفَّةً في كأسِهِ
أجمَرَت عيناهُ شوقاً
وتَلظّى شَبَقا
تَرَكَت مِن تاجِها
في خَمرهِ
غيمةً تغرقُ
فاستدعى إليهِ الغَرَقا
تُطرِقُ الحانَةُ
في إطراقِه حُزناً
فإن حَدَّقَ
صارت حَدقَا
عَرفَ الدنيا طريقاً
بين كأسينِ
فشَقَّ الدمعُ
في خَدَّيهِ
منها طُرُقا
صَحبُهُ ناموا
على أعناقِهِم
وغَدَوا
من طاولاتِ الخمر
إلّا رَمَقا
وهو ينضو
بين أعناقِ القناني
عُنُقا
وبعينيهِ يَلُمُّ الغَسَقا
يدفعُ الكأسَ
لِكفّي خِلِّهِ
ربما يُنشرُ
فالقنينةُ الكبرى اشرأبت
والضحى في البابِ
رَشَّ الحَبَقا
يا مويلايَ
على الصمتِ
نداماها ثِقالاً غادروا
مِزَقٌ تَسحبُ منهم مِزَقا
أخَذَتهُم طُرقٌ

عادت سريعا دونَهُم
فأين أخفَتهُم
وكيف البحثُ في الدهرِ
وأين المُلتقى
إسمع البلبلَ ينعاهُم
يمُطُّ الأُفُقا
والعصافيرُ
على طاولةِ الخمرِ
فراقٌ ولِقا
يَتَنهَّلنَ بقايا خمرِهِم
ويُنَفِّضنَ شآبيبَ
الندى والألقا
لا تمُت يا صاحِ
مِمّا خِلَتِ الحانةُ منهم
طارت الزهرةُ

في الريحِ
وظلَّ العَبَقا
لا تمُت
لسنا قناني عَرقٍ
يقذُفُها الدهرُ
وقد أفرَغَها بل عَرقا
يسكرُ اللهُ بِنا
إن نحنُ أنهينا القناني
ولَهاً أو حيرةً
في لغزهِ أو قَلَقا
لا تَنم بين يدي كأسِكَ
يا صاحِ إذا لا بُد
نَم فيهِ
على زهرةِ لوزٍ ألِقا
تَعَبي أطبقَ جفنَيهِ
وما نِمتُ
وكأسي في يدي
لم تَهوِ
إلا مثلما البُلبلُ
ينسابُ أنيقاً للسِّقى
طَرِبٌ أن على كأسي
جَبينَ الصبحِ
نشوانٌ بِما
قد خلقَ اللهُ
إلّا نَفَرا
سبحانهُ مِن نَجَسٍ
قد خَلَقا
صاحِ
لا تقذِف بوجهي
كأسَكَ الجَمَّ
فكُفري يعرفُ اللهَ بالتُّقى
كروانُ الليلِ
محبوسٌ بِجَنبَيكَ
أنا اطلقتُهُ بالخمرِ
مِن نافذةِ الحانة للهِ
فشَقّ الأُفقا
أوَ لا يُغفرُ للسكرانِ
لم يُشرِك ولم يَلقَ
سِوى الحانةِ هذي
موطناًبالدينِ
فالأوطانُ صارت ورقا
قَفصٌ يُتلِفُ
كلَّ الجوّ أفديكَ

فكيفَ الآن
والأوطان صارت نَفَقا
هائمٌ لم أدرِ
ماذا أسَرَ الشوقُ
وماذا أطلقا
سقطت زهرةُ لوزٍ
غيمةً في قدحي
ياربُّ ما هذا النقا؟
غَرِقت
لم استطع إنقاذَها
إصبعي زاغت
مِن السُّكر
وقلبي شَهَقا
وحماماتٍ تَزاقَفنَ
على غصنٍ بعيدٍ
فتَلظَّى عَبَقا
أين أيامُ اليماماتِ
شفاهي لم تَعُد داكنةً زَقاً
وقلبي سارقاً أو سُرِقا
لم تَزل
حُريةُ العصفور حلمي
لم يُسلّم
غيرَ للريحِ أغانيه
بالتمرةِ يستقبلُ
وجهَ الصبحِ
مخموراً لذيذاً نَزِقا
وإذا نرجسةٌ تَشهقُ
ما بين يد اللهِ
كأنثى زَقزقَ لَهِبا
نَطنَطَ في ترتيبهِ القَهويّ
والتفَّ على منقارِهِ
والغصنُ حتى شَرَقا
وأنا كُنّا عليها وذهبنا
والأغاني لم تزل
تشرب من كاسِاتنا
نحن عَشِقنا
لم يمُت مَن عَشقا.

كُنّا عليها وذهبنا
والأغاني لم تزل
تشرب من كاسِاتنا
نحن عَشِقنا
لم يمُت مَن عَشقا ❑❑

في المسرح العمل التجريبي ومدى نجاحه

سامي عبد الحميد
العراق

❑ العمل التجريبي في المسرح يحتمل الصواب ويحتمل الخطأ ؛ويحتمل النجاح ويحتمل الفشل . وصاحبه يضع أمامه ويقوم بإجراءات لإثبات صحة الفرضية وصولاً الى نتائج مرضية وقد لاتكون النتائج مرضية في المحاولة الاولى ولا في الثانية ولذلك يستمر التجريب الى ان يتحقق الهدف . وفي الغالب لا يضع المسؤولون عن الفرق المسرحية التجريبية في العالم الاخر في ذهنهم تقديم العمل التجريبي الى الجمهور الا بعد التأكد من ان ذلك الجمهور سيتقبل العمل والا اذا الحَّ المشاركون في العمل على مخرجهم ان يعرضه عليهم كي لايخيب ظنهم.

وهنا اذكر أن المخرج التونسي المعروف (محمد ادريس) وفي مهرجـان مسرحي في (هلسنكي) عاصمة فنلندا وبمناسبة مؤتمر المسرح العالمي الذي تعقده (الهيئة العالمية للمسرح) كل سنتين في مدينة جعيتة ، نعم اذكر انه رفض عرض المقطوعة التي كلف بإخراجها من قبل لجنة المسرح الجديد وهي جزء من ملحمة فنلندية .اقول رفض لأنه اعتقد ان المقطوعة لم تكن مهيأه للعرض وانها مازالت خاضعة للتمارين بينما قدم مخرجون آخرون من بلاد مختلفة مقطوعاتهم وبمختلف الأشكال وعلى وفق مختلف التقاليد، فالمخرج الكوري على سبيل المثال قدم مقطوعته المقتطعة من الملحمة الفنلندية على وفق تقنيات المسرح التقليدي الكوري.

وهذا ماحدث مع مخرج اخر من افريقيا .ورغم إلحاح الممثلين المشاركين مع المخرج التونسي بضرورة عرض العمل الى الجمهور الا انه رفض وقال "مازلنا في مرحلة التجريب والعمل لم يكتمل بعد" ، وبالفعل ظهر هو وكادر العمل على خشبة المسرح واعتذر .وكان (محمد ادريس) محقاً في رفضه لأنه شعر ان وقت التمارين لم يكف لاكتمال عمل يعرض للجمهور كما ان هناك صعوبة في ذلك الاكتمال لان الممثلين المشاركين معه من جنسيات مختلفة ولكل منهم لغته وثقافته وخلفيته.

حينما يعمل مخرج مسرحي مع مجموعة من الممثلين المبتدئين او من الهواة او من الطلبة فانما يمر بمرحلة تجريبية قد تنجح وقد لا تنجح .قد يخفق هدف العمل او قد لا يخفق لاسباب عديدة منها قلة الامكانات البشرية والمادية للنجاح ويكفي ذلك المخرج انه جرب وانه قام بتعليم مجموعة لم تتسلح بعد بتقنيات الفن المسرحي وبالتأكيد فأن النتائج قد لا تكون مرضية له وربما حتى للجمهور الذي يشاهد العمل ان عرض على المسرح وذلك بسبب ضعف الاداء الذي مرده ضعف الامكانات الذاتية للمؤدين او ربما لعدم استيعابهم لفكرة العمل وربما هناك اخطاء وقع بها المخرج ولم ينتبه اليها في خضم العمل.

ليس من حق صاحب العمل التجريبي ان يكابر ويمدح عمله ويبالغ بالإشادة به لأنه بذلك يكون منحازاً وغير موضوعي والحكم الوحيد هو الجمهور.

لاأعرف عن المخرج التجريبي (يوجينيوباربا) انه امتدح اعماله البسيطة والمؤثرة في الوقت نفسه وكان يعمل مع اعضاء فرقة مسرح(اودين) الدنماركية وفق مبدأ العمل الجمعي الطاقمي سواء في تأليف النصوص المسرحية ام باخراجها ام بتصميم مناظرها وازيائها واضاءتها ام بتمثيل شخصيتها وراح يعمل كثيرا على الارتجال اثناء التمارين ولم يفكر يوماً لا هو ولا اعضاء فرقته ان العمل الذي يتمرنون عليه سيعرض الى الجمهور وانه سيلاقي نجاحاً باهراً وبدلاً من ذلك عمل بمبدأ (المقايضة) اي ان يقدم عملاً مسرحياً ولا يطلبون من المتفرجين ثمناً للمشاهدة بل يطلبون منهم ان يقدموا عملاً فنياً محلياً مهما كانت نوعيته ومهما كان مستواه الفني كي يستفيد منه اعضاء الفرقة في اعمالهم التجريبية اللاحقة ولم اقرأ ان اعضاء الفرقة امتدحوا انفسهم او امتدحوا عملهم ومدى نجاحه بل يكتفون بانجازهم وبمحاولتهم وبتقييم الاخرين لهم ولأعمالهم التي اصبحت من نماذج المسرح التجريبي في العالم . وحينما هاجمهم البعض من النقاد ومن الدارسين ومن العاملين في حفل المسرح بسبب ضعف بعض اعمالهم او بسبب عدم تكاملها لم يظهر احد من اعضاء فرقة (مسرح اودين) ليرد الهجوم بعنف بل تقبلوا تلك الهجمات برحابة صدر وراحوا يناقشون محتواها وموضوعيتها وربما استفادوا من بعضها في اعمالهم اللاحقة . الابداع في الفن عمل نسبي وتقييم ذلك

الابداع عمل نسبي أيضا فقد لا يتذوق احد منا موسيقى واغاني الروك وهي بنظر اصحابها وجمهورها فن متقدم وقد لايتذوق الانكليز المقام العراقي ونحن نعتبره ذروة الابداع . وما أراه في عمل مسرحي فناً عظيماً قد لايراه اخر كذلك ونادراً مايحدث الاجماع على عمل ابداعي في وقته ، ربما يحدث التقييم الموضوعي لعمل فني معين ❑❑

كارثة وضع الحديث في الفكر الإسلامي هل تتكرر؟

د. سامح عسكر
مصر

❑ يمكن اعتبار أن ظاهرة وضع الحديث في التاريخ الإسلامي هي من أسوأ الكوارث العقلية والحضارية على الإسلام والمسلمين، وتأثيرها السلبي لا يزال حاضرا في المجتمع الإسلامي إلى اليوم بانشقاقات وحروب طائفية وجرائم دموية وعنصرية وخطاب كراهية عام لا يميز، بل لا أبالغ إذا قلت أنها أسوأ كارثة على الإطلاق أدت لكل ما سبق إضافة لتخلف عقلي عام وانتشار للخرافة والتواكل بشكل مفزع..

بدأت هذه الظاهرة بشكل شفهي منذ القرن الأول الهجري بوسائل منها "حدثنا وأخبرنا" وتعني وجود اتصال مباشر بين الرواة أو من ينوب عنهم، ووسيلة أخرى وهي الأكثر مُشاعا هي "العنعنة" وتعني النقل دون اتصال مؤكد، مما وضع هذه الوسيلة موضع شك لاحقا بين فقهاء الحديث حتى وضعوا لها شروطا لتأكيد الاتصال من بينها وجوب ثقة الراوي وثبوت اتصاله بمن نقل عنه ولو مرة، وهذه مشكلة منهجية داخل مصطلح الحديث بين مدرستين شهيرتين هما، مدرسة البخاري التي تفرض لقاء الراويين ببعضهما للحكم باتصال السند، ومدرسة الإمام مسلم التي لا تفرض هذا اللقاء وتقول باتصال السند إذا حُكِم على الراوي ببراءته من الكذب والتدليس والضعف.

لكن على المستوى السياسي والاجتماعي حصل فقهاء الحديث على مناصب عليا في الدولة وحظوة اجتماعية كبيرة ونفوذ سياسي أحيانا جعلهم زعماء ومؤثرين في التاريخ الإسلامي، ولولا رواج بضاعتهم وشهرة رواياتهم وقبولها شعبيا ما حصلوا على هذه القوة، مما يعني أن المعيار الذي كان يحكم فقهاء الحديث والمجتمع الإسلامي عامة لم يكن التحقق من صدقية الخبر أكثر من قبول الرواه نفسيا وماديا وسياسيا واجتماعيا ودينيا، وهذه هي المركزية التي خدمت هؤلاء الفقهاء في تأسيس شعبيتهم..فكلما كانت وسيلتهم في نشر الحديث مقبولة كالخطابة مثلا ولغة الجسد والعواطف أو اختيار السياق المناسب في الزمان والمكان (المعروف حاليا باسم الترينڈ/ الرأي العام) كلما نجحوا في نشر أقوالهم لتصبح دينا ومذهبا وأيدلوجيا مكتملة الأركان..

ظاهرة اجتماعية مثيرة فعلا ولم تتكرر في أي مجتمع آخر سوى في بدايات العصر المسيحي، الذين قاوموا تلك الظاهرة بمجامع مسكونية أمرت باستبعاد مئات الأناجيل والرسائل والكتب والاعتراف فقط ببضع وعشرين منها 4 أناجيل رئيسية ليصبح (العهد الجديد) ولولا نجاح المسيحيين في هذا الضبط لتكررت مشكلة الحديث والوضع في الثقافة المسيحية التي لم تكن لتسمح بظهور مذاهب جديدة لها شعبية كالمذهب البروتستانتي، أو ينجح المسيحون في هضم الحداثة والتنوير منذ 400 عام، فلولا هذا الضبط لصعبت جدا عمليات الإصلاح وصار ظهور أي مذهب ديني جديد هو عملية انتحارية لن تجازف في سبيله أي سلطة ، ولنظر المسيحيون لكل خصوم الكنيسة والمتشددين من رجال الدين على أنهم هراطقة وبالتالي لن يكون هناك فولتير أو روسو أو ديكارت ..باعتبار أن هؤلاء حصلوا على شعبيتهم ورواج بضاعتهم العقلية بناء على قابلية الدين المسيحي للتنوير والتحديث بشكل أساسي..

نعم حدثت مصاعب في أوروبا ولم يحصل المجتمع المسيحي على حريته الدينية والسياسية دون خسائر لكنهم في الأخير حصلوا في وقت كان العالم كله ينظر لرجال الدين والسياسة بشكل مقدس ... فهم آلهة تمشي على الأرض ومعارضتهم شئ من الكفر إن لم يكن كفرا مكتمل الأركان، بينمـا ومنذ أن غزت الحداثـة مجتمـع المسلمين قبل 200 عام منذ بدء إصلاحات الباشا "محمد علي" في مصر لم يزل المسلمون يواجهون الصعاب والنكبات ومستقبلا محفوف بالمخاطر..حتى وصلت النتيجة الآن لمجتمع فاسد مُهلهل تسوده الخرافة والعنف وقدسية رجل الدين حتى لو كان سفيها، ففي أي مقابلة بين رجل دين ومثقف لا ينحاز الجمهور للمثقف تحت أي وضع بل لرجل الدين حتى لو كان عديم الحُجة والمنطق، فبمجرد حدوث تلك المقابلة سوف تكون الدلالة التضمنية فورا هي أنها مواجهة بين "الإيمان والكُفر".

ملف شائك ظاهرة الحديث والرواية والسند..فهي التي أنتجت هذا الانحراف وجعل من فرصة ظهور مذهب جديد واجتهاد جديد عملية انتحارية أدت لقتل آلاف المفكرين وتهديد مثلهم في الماضي والحاضر، وبرغم الاعتراف بضرورة فتح باب الاجتهاد لكنه لا يزال مغلقا بشكل عملي..فهذا الباب المفتوح سوف يسمح بظهور مذاهب فقهية جديدة لكن الوعي الديني وخطابه الرسمي المؤسسي لا زال يرفض ذلك بدعوى قدسية السلف وثقته في من حملوا مشاعل الدعوة في بداياتها، رغم أنه لا تلازم بين الأمرين..فليس معنى السماح بالاجتهاد وصياغة مذاهب فقهية جديدة هو إهانة السلف..فلكل عصرٍ ظروفه وأعرافه ومثلما اجتهد السابقون فيجتهد خلفائهم بنفس الدرجة ، لكن الاعتقاد بقدسية وعصمة السلف والأئمة حال دون الاجتهاد بشكل عملي..مما جعل المواجهة تحدث بين فريقين هما :

أولا: الشيوخ ومعهم مؤسسات الدين الرسمية
ثانيا: المفكرين ومعهم مؤسسات الدولة الرسمية

والسر في انحسار تلك المواجهة بهذا الشكل أن طبيعة الدين الذي يرفض الشيوخ تجديده قائمة على معايير ماضوية قبل 1000 عام لم يعد لها وجود، فقد تغير العالم بشكل جذري ولم تعد قدسية البشر والحكومة مقبولة، وصار معيار الدولة الحديثة قائما على مفاهيم (الدستور والحريات وحقوق الإنسان) وهذه مفاهيم مصادمة لشريعة السلف بشكل أساسي التي تعتقد بدلا منها بمفاهيم (الشريعة والخلافة والجهاد) وتغيرت صورة الآخر في الدولة الحديثة بناء على ذلك..فقد صار الآخر مواطنا كامل الحقوق له حق الوجود والاعتقاد والثروة والسلطة..إلخ، بينما الآخر في شريعة السلف هو كافر يستحق القتل أو خاضع يدفع الجزية وليس له حق في السلطة والوظائف العامة وفرص حصوله على الثروة مقيدة ومرصودة نظرا لخطورة ذلك على الحكومة الدينية..

ظاهرة الحديث في الحقيقة لم تتوقف منذ القرون الوسطى فهي تتغير وتظهر بأشكال مختلفة، فلم يجد الوضّاعون أي مشكلة في ترويج أحاديثهم حتى بالعصر الذي نعيش فيه، وقد استبدلوا كلمة " حدثنا وعن فلان" بأخرى مثلما يخرج البعض منهم الآن بكلمة (جاء في الأثر) وهذا الخبر الموضوع لا علاقة له بكتب الحديث المشهورة والمغمورة – وهي بالمئات – لكنها من اختراعه هو أو من أحد يعرفه جيدا..لكن كلمة (جاء في الأثر) لها بريق اجتماعي يوازي كلمة "حدثنا وأخبرنا وعن فلان " التي شاعت في زمن وضع الحديث الأول، فضلا عن اختفاء وضعف وانعدام (فضيلة التحقق) التي هي سمة عامة للجمهور الذي يميل لتصديق الخطباء إذا أجادوا في توصيل معلوماتهم، فكلما كان الخطيب بارعا في الخطابة ولغة الجسد والعواطف كلما كان أكثر وصولا لقلب الجمهور..وكلما كان مدعوما من الأعيان والحكام يخضع العامة إليه دون تردد، فيُصدق الناس بضاعته المغشوشة دون تحقق حتى لو كانت تلك البضاعة المغشوشة تمس أبرياء أو تؤدي للظلم والقهر والحرب والكراهية فلا ينظر الناس في صدقيتها أبدا ويكتفون بثقتهم في الراوي.

ويمكن اعتبار أن ظاهرة وضع الحديث وصلت لأحدث تجلياتها الآن في (اليوتيوب) فهو المنصة الأبرز في إشاعة الأكاذيب والفبركات الصحفية ونسب أقوال وهمية لشخصيات حقيقية ، ويساعد على رواج هذا الوضع طبيعة المنصة نفسها التي لا تراقب المحتوى العلمي المنشور وترصد مكافآت مالية لأصحاب المحتوى وفقا

لعدد المشاهدات وظهور أكثر المحتويات شهرة في بند الاقتراحات لتصل لأكبر عدد من الجمهور، فصار كل من يبغي الحصول على الثروة بشكل سريع يدخل هذه المنصة بعناوين مثيرة تخاطب غرائز الناس ولا يحتاج ذلك منه سوى جهد بسيط جدا يتلخص في الآتي:

1- بانر أو بوستر مصنوع فوتوشوب يتم تثبيته في الصورة الخلفية للفيديو والتي تعبر عن محتواه في المنصة، ويكون هذا البوستر بمعنى مثير وصادم وبسيط في نفس الوقت ليسهل فهمه من طرف العامة، فتلك القنوات مهمتها خطاب الناس بلسان شعبي غوغائي مختلف عن الطريقة العلمية، كون الجماهير البسيطة لا تفهم لسان المشايخ التكفيري المتخصص بالغالب، لكنها تفهم جيدا هذا المحتوى المقدم لها من تلك القناة بلسان بسيط وصور معبرة لا أكثر...

2- محتوى ديني تكفيري يخاطب غرائز الناس ويكون هذا المحتوى موجها بشكل كامل ضد المشاهير والفنانين والإعلاميين والمثقفين، فهو لا يوجه ضد المشايخ كونه يتبنى نفس موقفهم من الثقافة والفنون والفكر والحداثة بشكل عام، وأثار ذلك ظهرت تباعا بزيادة حدة التكفير والعنف اللفظي بالأعوام الأخيرة ورفع مستوى التصلّب السلفي شعبيا مما أدى لرفع جمهور المشايخ ورجال الدين مرة أخرى بعد هبوطه أعقاب ثورتي يناير 2011 ويونيو 2013، ويمكن ملاحظة ذلك من اهتمامات الرأي العام وشعبية برامج الفتوى بالتلفزيون التي عادت باهتماماتها لما كان عليه الوضع قبل ثورة يناير من الاهتمام بالصغائر والبحث عن الحكم الديني والفتاوى وقضايا الحجاب والمرأة والفنون وتراجع الاهتمام تماما بقضايا الإصلاح والانفتاح بشكل ملحوظ..

3- مواكبة التريند بشكل دائم فلا يمر أي تريند شعبي دون فيديو، وهي نفس الوسيلة التي كانت تساعد في نشر الأحاديث والإشاعات قديما، فالكذبة عندما تخرج في ظرف مواتي لها ومناسب في الزمان والمكان والنفسية تجد لها قبولا مباشرا دون تمحيص، بينما لو ذكرت في ظرف غير مواتي لا تحصل على الاهتمام الكافي لشيوعها فتموت مع الزمن، وما تفعله هذه القنوات من مواكبة التريند بشكل دائم عن طريق البوستر هو الثقافة البديلة التي تغرس الأكاذيب وتنشر الإشاعات خارج سيطرة الدولة ودون إمكانية تصحيح ذلك من المثقفين والإعلاميين، فحتى مع حملات التصحيح لكن الكذبة ترسخ في الذهن مباشرة فور دخولها الأول، حتى إذا جاء التصحيح لا يجد الفرصة والمساحة المناسبة لعودة الذهن إلى ما كان عليه، والإنسان دائما يعلق في ذهنه الصورة الأولى للأشياء فلا تفارقه حتى يموت بالغالب..

إن تأثير ما يحدث على اليوتيوب شبيه بما كان يحدث قديما في زمن وضع الحديث، فبدايات كلٍ منهم متشابهة..ومثلما كان الموالي والفقراء هم من بدأوا في هذه البضاعة أملا في حصد الثروة والسلطة تنشغل الآن نفس الفئة الاجتماعية على اليوتيوب لتحصيل المال، ويمكن المرور على قنوات الإشاعات في المنصة وعمل دراسة اجتماعية لأصحابها نرى أن هؤلاء في الغالب فقراء يهدفون للربح والشهرة والظهور الاجتماعي، فهم شباب مغمورين بالمئات عاطلين عن العمل ليست لديهم مشاريع حياتية أو برامج فكرية أو ثقافة شخصية، وكل ما يملكوه هو اللعب على وتر الدين لخطاب الجمهور وأن تحصل قنواتهم على الشهرة السريعة.

ولكي لا أكون متشائما هناك عدة فوارق ينبغي ذكرها:

أولا: وضع الحديث قديما كان يحدث بأمر السلطة السياسية التي نجحت في توظيف المحدثين لصالحها، فالعلاقة حينها كانت بين منتفعين كل منهم يساعد الآخر في تثبيت نفسه والحفاظ على مكاسبه، لكن الوضع الآن لا يحدث بأمر السلطة السياسية ..لأن السلطات تعتمد على المؤسسات الدينية القديمة والمعتمدة هي الأخرى على مادة الحديث الموروثة، علما بأن هذه المادة الحديثية الموروثة صارت عبئا على الحُكام وفقا للصراع الذي طرحناه منذ قليل بين الدولة ورجال الدين، لكن الحاكم ولكي لا يفقد إيمانه الشعبي يعتمد على مؤسسات الدين الرسمية وهي كما قلنا ليست مستعدة لقبول الإشاعات لظروف الرقابة الشديدة عليها والترصد الذي يحدث من جانب المثقفين..

ثانيـا: وضع الحديث قديما ظل أكثر من 500 عام دون تحقق وفرز الضعيف من الصحيح والصادق من الكاذب، فأولى محاولات التصنيف في ذكر الموضوعات وأشهرها كانت من ابن الجوزي البغدادي المتوفي عام 597 هـ ،والتحقق لم يكن بهذا الشكل قبله..مثلما ذكر البخاري أنه صحح كتابه الجامع من 600 ألف حديث لم يذكرهم، وعدم ذكر البخاري هذا الكمّ الضخم من الموضوعات ساهم في التلبيس على العوام والجمهور، وصار كل من يؤلف في الحديث لديه الحصانة من النقد والتتبع حتى من بين أقرانه في زملاء المهنة، أستثني بعض ردود النسائي على مسلم والداراقطني على البخاري، وهي محاولات طفيفة للتحقق لم تسهم في إحداث عملية تغيير أو مراقبة الوضّاعين بشكل جاد..

ربما للبخاري عذره..فقد كان دبلوماسيا لا يريد الصدام مع خصومه، فلو صرّح الرجل بضعف أحاديث مسلم وابن حنبل ومالك مثلا سوف يؤدي ذلك ربما لتكفيره نظرا لأن الحديث وقتها كان مقدسا..وقد ذكرنا في مقالات سابقة أن خلافا بسيطا بين البخاري ومسلم في قبول العنعنة أدي لتشنيع مسلم عليه..وروايته القول بخلق اللفظ أدى لتشنيع كبار المحدثين في عصره أيضا عليه كأبي حاتم الرازي وأبو زرعة الرازي..وغيرهم..

الآن الوضع اختلف، فالتحقق صار ميسورا وسهلا..وبضغطة رز تكشف أكاذيب وإشاعات لا حصر لها وعن طريق قنوات يوتيوب أيضا وحسابات سوشال ميديا أخرى اشتهرت منذ سنوات تحت عنوان (صحيح كذا) أو (تصحيح كذا) وهي المبادرة التي قدمها شباب محترفين ذوي علم جيد كماً وكيفا تحت عنوان (دا بجد ؟)

لكن هذا التصحيح يجد صعوبات منها كما قلنا صعوبة علاج الصورة الأولى للكذبة التي أنتجها الذهن، وثانيها :غياب تمويل هذه المبادرات ماليا ودعمها إعلاميا ومؤسسيا فما زالت تعمل بجهود فردية، وثالثها:غياب الرقابة عن قنوات الإشاعات أكبر محفز على تضخمها ودخول العشرات فيها يوميا للتربح السريع على حساب جهل الناس وفقدان ثقتهم في الدولة والإعلام الرسمي، وبرأيي لو تم تفعيل قانون الصحافة لتتبع ومحاسبة هؤلاء الوضّاعين إضافة لعقد حملات قومية وتوعوية رسمية وشعبية بخطورة هذه الفئة على المجتمع لتم تقييد مصادرها ودفع المنصة نفسها – اليوتيوب – لمراقبة المحتوى.

ثالثا: الحديث قديما وحديثا تمت ترجمته للغات أجنبية ودخل الوضّاعون بثقافتهم أذهان وتقاليد الشعوب الأخرى مع الزمن، لذا فكارثته كانت متسعة لم تترك كل من يؤمن بالقرآن إلا وقدّمت هذا الوضع وتلك الأكاذيب عليه..بينما الظرف الآن مختلف..فتلك القنوات على يوتيوب مع بوستراتها المزيفة وتلاعبها بالمشاعر الدينية لم تُترجم لشعوب وأقوام أخرى، ولا زال محتواها ضيقا مخصوص فقط للمجتمعات العربية أو الوطنية المحلية..وبالتالي لا زال تأثيرها محدودا وسيظل كذلك لو لم تصبح ظاهرة عامة، وإن كانت قنوات الإشاعات موجودة في كل دول العالم على يوتيوب..لكن تورطها في الجانب الديني أو الحض على كراهية الطوائف قليل وعليه رقابة شديدة لمدنية الدولة وحساسية مؤسسات الغرب ضد أي خطاب عنصري أو طائفي أو أي خطاب كراهية على أساس الانتماء، بينما هذا غير متوفر لدينا، وبعض مؤسساتنا مخترقة من العنصريين تجاه المرأة والأقليات الدينية والعرقية، بينما الدولة لم تتخذ قرار المواجهة الحاسمة بعد مع هذا الاختراق ولا زالت تتعامل معه بيد مرتعشة...

وبرغم هذا الاطمئنان والتفاؤل لكن الارتكان إلى طبيعة العصر في سهولة القضاء على هذه الظاهرة غير صحي، خصوصا وأن الثقافة بالتاريخ ليست ثابتة بل تصعد وتهبط حسب الأحداث، ومثلما يوجد تيار تنويري قوي يوجد آخر ظلامي هو أكثر منه قوة وانتشارا، وعلاج ذلك كما قلنا دوما هو (قرار السلطة) فبغياب القرار الحكومي والرغبة الدولية والمؤسسية في مكافحة هذه الظاهرة الخطيرة يعني استفحالها لتمس عمل الدولة نفسه، ولأن تلك القنوات تمثل حاليا وفي المستقبل ثروة إعلامية واجتماعية ضخمة لصالح الإسلام السياسي المستفيد الأول من تلك الأكاذيب..ومن واجبي كمكفر التنويه على ضرورة دعم مبادرات التصحيح وتفاعل المثقفين معها والتركيز أكثر على طرق المكافحة ووقف سيل التضليل الذي يمس عقول الشباب والبسطاء بفعل فاعل ❑❑

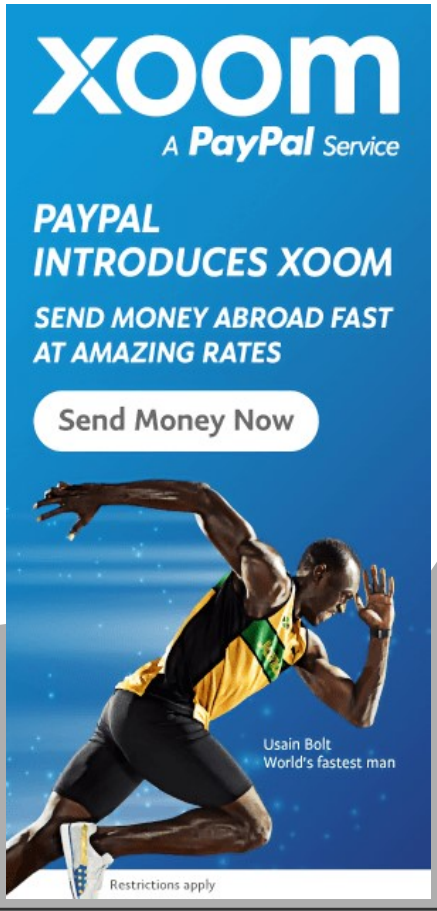

والأسطورة قوة مهيمنة ومرعبة

عزيز باكوش
المغرب

❑ في روايتها الشيقة "قواعد العشق الأربعون" الصادرة عام 2019 في طبعة خاصة بمصر ترجمة خالد الجبيلي في 504 من الصفحات ، تنتقل الروائية التركية إليف شافاك من السياسة إلى الدين ،ومنهما إلى حقوق المرأة والحب ، وهي الموضوعات المثيرة للجدل ،والتي خاضت فيها وقدمتها بتقنية روائية يحسدها عليها كبار المؤلفين الروائيين ".

في تقديم جليل ونبيل خص به المؤلفة، يوضح الدكتور محمد الدرويش دوافع اهتمامها بجلال الدين الرومي وشمس التبريزي ، معتبرا رائعتها «قواعد العشق الأربعون» تعزيزا لشهرتها الأدبية على نطاق عالمي، ليس بسبب نفاذها من السوق في ظرف قياسي فحسب ، حيث بيع منها أكثر من نصف مليون نسخة فور صدور طبعتها الأميركية في أبريل 2010، وطبعتها الإنكليزية عن دار بنغوين للنشر في يونيو من العام نفسه ، بل لأن الرواية جاءت تتويجا واستحقاقا وتعبيرا صادقا عن مجمل قراءاتها الأدبية والفكرية من جهة ثانية والصوفية الإسلامية على نحو خاص .

وتكشف المقدمة المستنيرة للدكتور محمد الدرويش عن مرتكز النظرية الفكرية المعاصرة للروائية التركية "إليف شافاك" حيث يتجسد العالم المتعدد الثقافات، وحشا أسطوريا مرعبا ، وكابوسا مدمرا لطموحات البشر . حيث تبدو الصراعات المجتمعية، أشد شراسة من الصراعات الدولية، ليس لأن كل طائفة فيه تمحق من يخالفها من بقية المذاهب والطوائف، بقوة السلاح تارة، وبقوة الخرافة والأسطورة والميثولوجيا تارة أخرى،فحسب ،بل لأن الحاضر سيغدو كابوسا مقيتا ومرعبا يخرج الإنسان المعاصر من عصرانيته، ويدفع به إلى ظلامية أشد من ظلامية العصور الوسطى، تجرده من فكره، ومن عقله، ومن عواطفه، وقبل هذا كله من حبه للآخر."
وعن التأثير العميق للصوفية في نفسية الكاتبة وروحها وعاطفتها تكشف " عندما كنت أصغر سنا، لم يكن يهمني أمر العالم ولا فهمه . كل ما فكرت فيه يومئذ هو تغييره بمساعدة ثلاثة عوامل هي "النزعة النسوية، والفكرة العدمية، والحركة البيئية. "لكن، كلما تعمقت في قراءة الصوفية وجدتني جاهلة أكثر من ذي قبل، وهذا ما ترمي إليه الصوفية تماما : إنها تجعلك تمحو ما تعرفه، وما أنت متأكد منه، لتبدأ التفكير من جديد، لتبدأ التفكير من جديد، ولكن التفكير في هذه المرة،لا يستند إلى العقل، بل إلى القلب".

في روايتها "قواعد العشق الأربعون"، التي مزجت فيها بين قراءة الماضي المتجسد في شخصيتي جلال الدين الرومي وشمس التبريزي، وقراءة الحاضر المتمثل في شخصية إيلا؛ ربة البيت الأميركية التي تفتقر إلى الحب بعد عقدين من الزواج بطبيب أسنان منهمك في ملذاته قدر انهماكه في عمله ، إن على الصعيد المهني أو الغرامي. ولكن، هل في وسع ربة البيت هذه أن تعوض عن حرمانها الحب بقراءة مخطوطة رواية موازية تتحدث عن زمن شمس التبريزي وجلال الدين الرومي؟ وهل تجد الأحداث المتنقلة بين بغداد والأناضول معوضا عن فراغها الروحي في منزلها في حي نورثهامبتون الراقي؟

وتعتبر مدينتي إسطنبول وأمستردام وبرلين ولندن محور ومركز اكتساب الشخصية الفذة لإيليف ،ثمة أشخاص كانوا مصدر إلهامها في تأليف هذه الرواية، بما قدموه لها من قصص وصمت.

وتعتبر نفسها مدينة أيضا ل "بول سلوفاك" على إسهاماته التي لا تعد ولا تحصى، وعلى حكمته الباطنية، فضلا عن اقتراحاته الجوهرية عندما كانت المخطوطة تتنقل بين إسطنبول ونيويورك."

تكتب الروائية التركية إليف شافاك أعمالها باللغتين التركية والإنكليزية، وتترجمها دور النشر العالمية إلى أكثر ثلاثين لغة، حتى أصبحت كتبها الأكثر مبيعا في الدول الأوروبية. لقد درست الصوفية دراسة مستفيضة وهي في العشرين من عمرها، فتأثرت بها تأثرا كبيرا، لا على صعيد السلوكين السطحي والخارجي، بل على صعيد الفكر والرؤية .وقالت عن الصوفية"

وترى الروائية إليف في التشبث بالماضي عند بعض الإثنيات عقبة كأداء أمام تطور بلدهم، لأن مثل هذا التشبث الأعمى، كما تسميه، يحول دون رؤية الواقع الراهن بما فيه من إيجابيات ومتغيرات. "ولهذا، تجدها تدعو كلا من الأتراك والأرمن إلى نسيان الماضي الموغل في القدم والعادات من أجل بناء عالم جديد تسوده المحبة وروح التفاني وقبول الآخر، فتراها منهمكة منذ زمن غير قصير في قراءة مؤلفات الصوفيين الكبار، الذين تساموا بمفاهيمهم"، وترى في الصوفيين في جميع أرجاء العالم، الذين التقتهم وما زال عليها أن تلتقيهم، والذين ربما يحملون أسماء وجوازات سفر مختلفة، أنهم يتمتعون على الدوام بالقدرة المدهشة نفسها على رؤية الأشياء من وجهتي نظر اثنتين، وجهة نظرهم ووجهة نظر الآخر.

وترتكز رؤيتها الفكرية المعاصرة، إلى حد كبير، على ما هو سياسي وفلسفي وأدبي واجتماعي، في آن واحد. فوالدها هو الفيلسوف نوري بيلجين، ووالدتها الدبلوماسية شافاك أتايمان، وأخذت أليف اسمها الثاني من اسم والدتها الأول شافاك "الذي يعني بالعربية شفق". وإذا كان الوالدان قد انفصلا ولها من العمر سنة واحدة لا غير، فإن تربيتها ، بغياب والدها، أثرت فيها تأثيرا كبيرا، أقله على الصعيدين الكتاب والأدبي.

وأمضت المؤلفة سنوات مراهقتها في مدريد وفيلادلفيا، لكنها ستعود لتسكن مرة أخرى في تركيا، ولاسيما في إسطنبول ،ويبدو أن لمدينة إسطنبول أكبر الأثر في كتاباتها ، بل هي المحور الأساس الذي تدور في فلكه معظم أدبياتها. وهي ترى أن هذه المدينة تساعد المرء على أن يفهم منها غريزيا ، لا عقليا، أن الشرق والغرب ليسا سوى أفكار متخيلة. وقد أوضحت رأيها هذا في مقالة نشرت في مجلة «التايم»، قائلة إن الشرق والغرب ليسا كالماء والنفط ،لأنهما يمتزجان أساسا. ويمتزج الشرق والغرب في مدينة إسطنبول امتزاجا حقيقيا وقويا ومتصلا."

فقد تنقلت، المؤلفة بين مدن متنوعة الأعراق والأجناس والشعوب، ومتعددة الثقافات والبنى الفكرية والأيديولوجية. فولادتها في استراسبورغ بفرنسا، والطفولة والمراهقة بين عمان ومدريد والمانيا. ثم الولايات المتحدة بعد ذلك . لكن مدرستها الداخلية كانت في ألاباما، وعاشت مدة من الزمن متنقلة بين مدينتين: تاكسون وإسطنبول، وهما مدينتان على طرفي نقيض؛ الأولى أميركية غارقة في هدوئها وسكونها وشدة تنظيمها، وإن كانت الصحراء التي تحيط بها هي التي خلبت لبها، والثانية تركية لا تعرف طعم الراحة أو الهدوء بملايينها العشرة. فإذا تاقت إلى الصخب والعنفوان ذهبت إلى إسطنبول، وإذا اشتاقت إلى الهدوء والسكينة عادت إلى تاكسون. هي الروائية، نفس بشرية لا تستقر لها حال، ولا يستقر بها مقام، تسعى إلى الجمع بين الضدين قدر ما تستطيع، وإن كانت قد استقرت في العاصمة البريطانية، لندن، منذ عامين، وكانت ذكرت مرة أنها معجبة بها ،لأن الناس تتحدث في شوارع لندن بما يزيد على ثلاثمئة لغة اليوم، وأن لكل لغة، كما تقول أليف، تعقيداتها ومتاهاتها وإيقاعاتها. وهي سعيدة باكتشافها الإمكانات التي تنطوي عليها كل لغة. والكتابة، بأكثر من لغة، كما هي حالها، تنطوي على تحديات جمة، لغوية ووجودية، وعلى الروائي أن يكتشف صوته الأدبي عندما يكتب بلغه ثانية"

وحازت الروائية التركية إيليف شافاك رسالتها عن «التصوف الإسلامي وفهم الزمان فهما دائريا» جائزة قيمة من معهد علماء الاجتماع. وكانت ولا تزال تواصل الكتابة بانتظام في عدد من الصحف والمجلات العالمية،

مثل الغارديان» اللندنية و«اللوموند» الفرنسية و«برلينر زايتونغ» الألمانية والنيويورك تايمز» و «وول ستريت جورنال» و«الواشنطن بوست» و«التايم» الأميركية.

في الصفحة 65 من الرواية نقرأ "شاهدت قرى ضربها الفقر، وحقولا سودتها الحرائق، وبلدات سلبت ونهبت وباتت أنهارها حمراء اللون، ولم يعد فيها رجل يزيد عمره على العاشرة في قيد الحياة. ورأيت ما هو أسوأ وما هو أفضل في طبيعة البشر، ولم يعد أي شيء يثير دهشتي بعد اليوم.

بدأت، عندما كنت أعيش تلك التجارب، أؤلف قائمة لم يسبق أن دونها أحد في كتاب ما، بل دونتها في روحي. وقد سميت هذه القائمة القواعد الأساسية لمتصوفي الإسلام الجوالين». وأنا أرى أن هذه القواعد شاملة يمكن الاعتماد عليها، وثابتة مثل قوانين الطبيعة. وتشكّل، في مجموعها، القواعد الأربعين لديانة الحب التي يمكن بلوغها بالحب ولا شيء سوى الحب. وتقول إحدى هذه القواعد:
"إن السبيل إلى إدراك الحقيقة عمل من أعمال القلب، وليس العقل. دع قلبك يرشدك أولا، وليس عقلك. إلتق نفسك وتحدها، سطر بالتالي عليها بقلبك. إن معرفتك نفسك ستقودك إلى معرفة الله» .

أولى رواياتها كانت «الصوفي»، التي نالت عنها «جائزة جلال الدين الرومي» في عام 1998، بصفتها أفضل عمل عن الأدب الصوفي في تركيا . أما روايتها الثانية «مرايا المدينة»، فهي عن التصوف الإسلامي والتصوف اليهودي في القرن السابع عشر .وجاءت روايتها الثالثة «نظرة محدقة»، لتنال عنها «جائزة اتحاد الأدباء الأتراك» في عام 2000 صدر لها بعد ذلك رواية «قصر البرغوث» التي أصبحت أفضل الكتب مبيعا في تركيا، وأعقبها كتاب يضم مجموعة من المقالات عن الأدب والثقافة والجنس والانغلاق الثقافي. وصدر للكاتبة في عام 2004 أول رواية تكتبها بالإنكليزية بعنوان «قديس الحماقات الأولى»، وجاءت بعد ذلك روايتها الثانية بالإنكليزية بعنوان «القيطة إسطنبول»، التي أصبحت أكثر الكتب مبيعا في تركيا عام 2009، وتسببت بإقامة دعوى قضائية ضدها بتهمة الإساءة إلى القومية التركية،وذلك على لسان إحدى شخصيات الرواية، عند الإشارة إلى موت مئات الآلاف من الأرمن في عام 1910، ووصف ذلك الموت بأنه إبادة جماعية. لكن هيئة القضاء أفرجت عن الكاتبة لعدم كفاية الأدلة".

على ظهر غلاف الرواية نقرأ "هذا الكتاب"
تمسك قطعة من الحجر بين أصابعك، ترفعها ثم تلقيها في مياه دافقة. قد لا يكون من السهل رؤية ذلك. إذ ستتشكل مويجة على سطح الماء الذي سقط فيه الحجر، ويتناثر رذاذ الماء، لكن ماء النهر المتدفق يكبحها. هذا كل ما في الأمر. ارم حجرا في بحيرة، ولن يكون تأثيرها مرئية فقط، بل سيدوم فترة أطول بكثير. إذ سيعكر الحجر صفو المياه الراكدة، وسيشكل دائرة في البقعة التي سقط فيها، وبلمح البصر، ستتسع تلك الدائرة، وتشكل دائرة إثر دائرة . وسرعان ما تتوسع المويجات التي أحدثها صوت سقوط الحجر حتى تظهر على سطح الماء الذي يشبه المرأة، ولن تتوقف هذه الدائرة وتتلاشى، إلا عندما تبلغ الدوائر الشاطئ. إذا ألقيت حجرا في النهر، فإن النهر سيعتبره مجرد حركة أخرى من الفوضى في مجراه الصاخب المضطرب. لا شيء غير عادي. لا شيء لا يمكن السيطرة عليه. أما إذا سقط الحجر في بحيرة، فلن تعود البحيرة ذاتها مرة" ❑❑

سعدون جابر جحود مزمن للأسف

د. طالب الجليلي
العراق

❑ يا طيور الطايره ... اغنية عرفت المستمع على المطرب سعدون جابر في بداية السبعينات ..! كان العالم متهيئا لمؤتمر الشباب العالمي في برلين الشرقية .. أعطى الملحن الشيوعي المعروف كوكب حمزه هذه الاغنية التي كتب كلماتها الشاعر الشيوعي الرائع زهيرالدجيلي ، الى سعدون جابر ليحلق بها مع تلك الطيور عاليا مع المد الشبابي اليساري إبان قيام الجبهة الوطنية !! ... سعدون جابر، المطرب الذي لم يكن صوته مميزا ولم تك حنجرته تطلق سوى طبقة واحدة عالية ومختنقة ومخدشة للسمع ، انطلق ليقف عنوة الى جانب حسين نعمه و حميد منصور وغيرهم من عمالقة الغناء العراقي انذاك، مسخرا ذكائه المفرط واجادته اغتنام الفرص وركوب الموج مهما كانت هويته ونوعه !! راح يصطاد بحذاقته المعروفة الكلمات الجيدة ومصدرها وشعبيتها .. !! اختار إشعار (عريان السيد خلف) وأبو سرحان وناظم السماوي والتصق ايم التصاق بكوكب حمزه وكريم العراقي ، وكلهم كانوا شيوعيين !! فعاد وغنى (الكنطره ابعيده) و (كوم سويلي جاره) وغيرها .. فحلق عاليا في سماء الشهرة وتجاوز معاصريه من المطربين ليس بشيء سوى ذكاءه وحسن اغتنامه الفرص والظروف!.

وفي الثمانينات ...! حيث الحرب العراقية الإيرانية وتغير المناخ السياسي في العراق على اثر انفراط الجبهة الوطنية وتشتت الشعراء والملحنين اليساريين أمثال كوكب حمزه وكمال السيد وانزواء الشعراء اليساريين وهم مطاردين من السلطة .. اتجه (بذكائه) سعدون نحو مدينة العماره حيث صالون (اجاجا) في شارع المعارف ... هنا مد سعدون جسرا بينه وبين شاعر العماره الرقيق (سعدون قاسم) وملحنها المبدع (كاظم فندي) ... اخذ من هذا الثنائي الرائع اجمل اغان سعدون جابر في الثمانينات...! واذكر منها: هوا العالي، ابشيره، جتني الصبح، يا حسافة عمري بيك، وفينا وما وفو، ياسكينه، بويه محمد ...الى غيرها من الأغاني الجميلة التي عاد سعدون جابر ليحلق عاليا بها مع طيور العماره واهوارها ..!! اذكر ان الشاعر سعدون قاسم جائني يوما مرتبكا وهو يرجو ان أمنحه اجازة مرضية ليومين سابقين !! وكان ذلك يمكن ان يعرضني للمسائلة!!

قال لي موضحا: لقد اتصل بي سعدون جابر يطلبني فورا مستصحبا قصيدة اكتبها لكي يغنيها في حفل زفاف نجل وزير الدفاع السعودي، كهدية له من الفريق عدنان خير الله طلفاح!! ضحكت وقتها وقلت ممازحا: وسوف تكون هديتك عالية هذه المرة من (طويل العمر!!) ... اجاب سعدون بحسرة وهو يهز كتفه يائسا: وهل تتوقع يطّلع من سعدون جابر شيئا؟! ... كنت اعرف جيدا ان سعدون جابر مع كل الثروة التي كان يجنيها بفضل الشاعر والملحن، لا يعطيهما ما يستحقون من حقوق متعارف عليها في مجال الفن ... لكن كاظم فندي وسعدون قاسم ظلا يحتفظان بعلاقة ود وصداقة مع سعدون جابر انطلاقا من تلك الطيبة والعفوية التي يتسم بها مجتمع مدينة العماره، مدينة الماء والسماء والصفاء!.

لقد استفزني ذلك اللقاء مع سعدون جابر من على قناة النيل الثقافية المصرية ... استفزني كثيرا وهو يمر على اسماء الملحنين والشعراء الذين وقفوا وراء أغانيه التي غناها في مسيرته الغنائية.
لقد ذكر كوكب حمزه وطالب القرغللي و (بليغ حمدي) ... ولم يشر (اطلاقا) الى الشاعر (سعدون قاسم) ولم يذكر الملحن (كاظم فندي) على الإطلاق!!!!...

أي جحود هذا ...!!!؟؟؟ ❑❑

ماجد ع. محمد
سورية

مستوطَن

كُن، ساكن، مقيم، ثاوي، نزيل، مهجّر، مهاجِر، نازح، لاجئ، مشرد، مَنفي، مُغترب، مُبعَد، مطارَد، مُلاحَق، ولكن لا تقبل أن تكون مستوطِن، ولا تسمح لمن يُمولك أو يعرض عليك البدائل أو يفرض عليك خياراته بأن يحولك من مواطن صاحب حق إلى مستوطن يسلب حق غيره، ولا تسمح لأحدٍ بأن يلحفك بذلك الثوب النتن، لأن المستوطن بمعية المسلح أو بقوة السلاح هو قرين السَّفالة، ومحروم من التآزر والتعاطف معه حتى وإن كان بنيران الحاجة يُلسع، ليس جديراً بالحزن عليه حتى وإن كان على صفيح التعاسة يتلوى، فلا يستأهل الرأفة ولو كان موجوعاً منذ قرون، ولا يستحق المساعدة وإن كان في سعير الفاقة يغوص، وليس جديراً بالتعاون لأن التضامن لا يكون مع مغتصِب، بل وفوقها هو مستحقَر ومنبوذ ودميم ومُقرف، وحاله أقرب إلى حال المستعمِر المحتل وليس المستعمَر المضطهد.

***

المقيمُ بقي في مأمنٍ من روائح الإدانةِ
والساكنُ متبرئٌ من تهمة العدوان
القاطِنُ لا يُشعل إيقاعه بأنغام النفور
الماكِثُ لم يضف معناه لقاموس البُغضِ
المُسْتَقَرُّ لم ينضم لرهط السُّخطِ
المنفيُّ تبوأ بجدارة كرسي المظلومين
والنزيلُ حافظَ على نفسه
ولم يلوث ذاته برغبة الاستحواذ على ما ليس لهُ
أما المستوطِن فاختزَل كل تاريخ النتانة
وبدا للناظرِ لحاله وكأن ماضيه لم يكن أكثر من مكب.

***

قال بصوته الذي غدا كنايٍ اختنقت الأنغام في حنجرته، وهو لا يعلم بأن ملفوظه سيغدو شهادة هَرِمٍ قارب المئة عام، معمرٍ طاعنٍ في الذكريات، بالرغم من أن أبعد مشوارٍ له طوال عمره كان إلى مدينة حلب، مُسناً تعمَّد منذ نعومة أظفاره بماء الوئام والتهذيب، فلم يكن يعلم شيء عن معنى الغزو والنهب والاستيطان والمستوطن، ولا كان على دراية بما كان يفعله المستوطن المجلوب من أقاصي العالم بجسد فلسطين وأهلها، ولكنه قال عن النموذج البشري الذي أمام ناظريه، أي ذلك المستولي على أرض وكروم وآليات وبيت قريبه وممتلكات أصدقائه في أكثر من قرية في منطقة عفرين، بأن هؤلاء المسلطون على رقابنا بإيعازٍ من خليفة المسلمين، كانوا السبب المباشر لأكف عن النظر في وجه الرب منذ أن داسوا بأظلاف وحوافر مواشيهم هذه المرابع؛ فهو الذي كان يستحم قبلها بأولى شعاعات فجرالإله وخواتيم غروبه منذ عقود، فمن هول الصدمة راح يقول: أمن الممكن أن يكون إلهي هو نفسه إلهُ هؤلاء الهمج؟ مضيفاً بأنه منذ أن استوطن الأوباش في قريته وهو يخطأ بمواعيد الصلوات، وغادرت شفتاه البسملات والحمدلات، وبُدلت تمتماته السَّمحة بجُملٍ معبأة بديناميت اللعنات، ويردف بأنه منذ أربع سنواتٍ يحاول تقديم تعريفٍ مناسب لمقام من غزوا قريته، إلاَّ أنه عجز حتى الآن عن وصف ما هم عليه، لذا في الحديث عنهم يقول:

مهما دحرجتُ ملفوظاتي التوضيحية صوبكم، بقيت كلماتي المجازية غير قادرة على وصف البشاعة التي جُلبت مع ظلالهم حين الغزوِ وبعد طول المكوث، فكيف لي إذن أن أقدر على وصف شيءٍ من شناعة حقيقتهم؟

أبحث في صفحات الكتب عن حكايتي

عن مدينتي وبيتي وحلمي الصغير

عن قطتي وأريكتي ومنفضة السجائر

وولاعتك التي تركتها لي

عن وجهك في آخر حزن جمعنا

وعن بكائي بعدها لسنوات

عن المرأة التي اصبحت عليها بعد ألف عامٍ من الفراق

لم انسى ولن أنسى

سلام على مواضع الجرح في جسدك ياشهيدي

نوال شق
سورية

The Leftist
WRITER
The First Multi-Cultural Review in Diaspora
Academic - Political - Ideological - Critical and Cultural

Dr. William Nassar
A Free Lesson in the Art of Terrorism

Issue No. 66 :: March 2022
Specialized in Written Creativity and Fredom of Thought
العدد رقم 66 :: آذار - مارس 2022

⌘ المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة، باستثناء الموقعة باسم رئيس التحرير أو مدراء التحرير .

⌘ مجلة الكاتب اليساري غير تجارية وغير ذات نفع مادي، تغطي تكاليف إصدارها من خلال نشر بعض الاعلانات لمؤسسات أكاديمية وإنسانية وثقافية.

⌘ ترتيب الأسماء والمواد يخضع لاعتبارات فنية ولا علاقة لها باسم أو أهمية الكاتب.

⌘ المراسلات تتم باسم رس التحرير، مع مراعاة ذكر الاسم الكامل والعنوان ورقمم الهاتف.